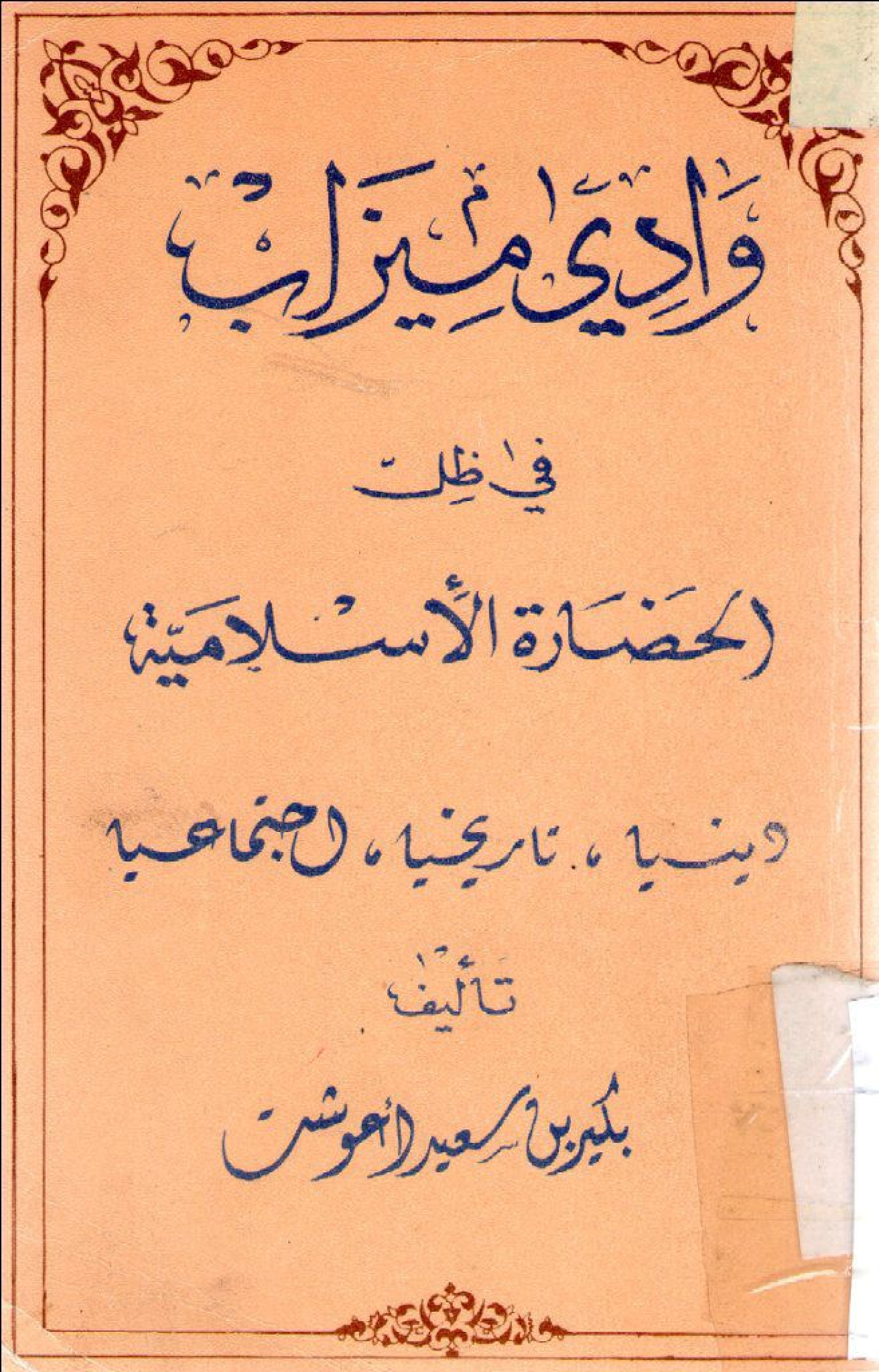


وادي ميزاب

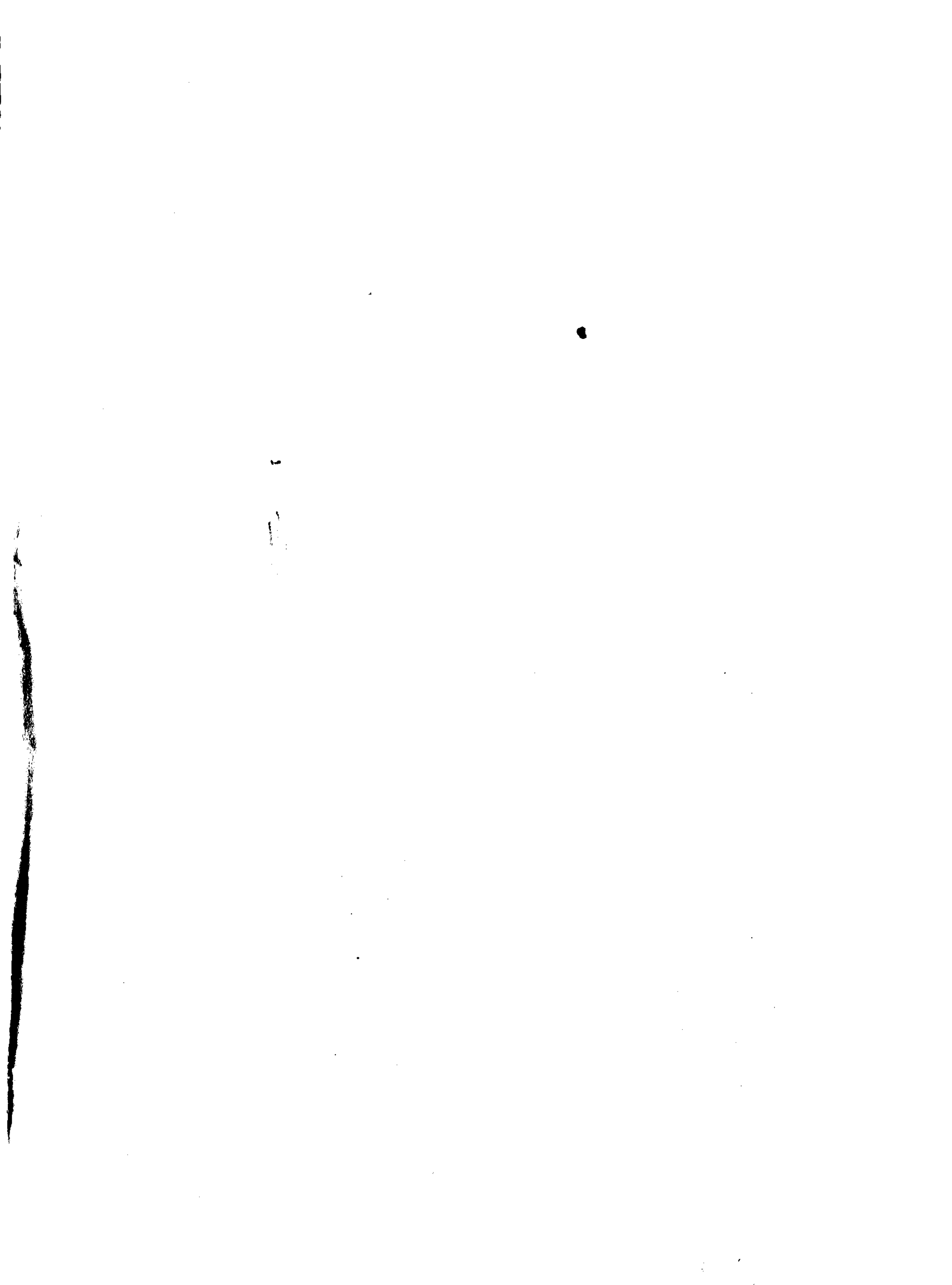
في ظل

الحضارة الإسلامية

دينيا، تاريخيا، اجتماعيا

تأليف

بكير بن سعيد أعوشت



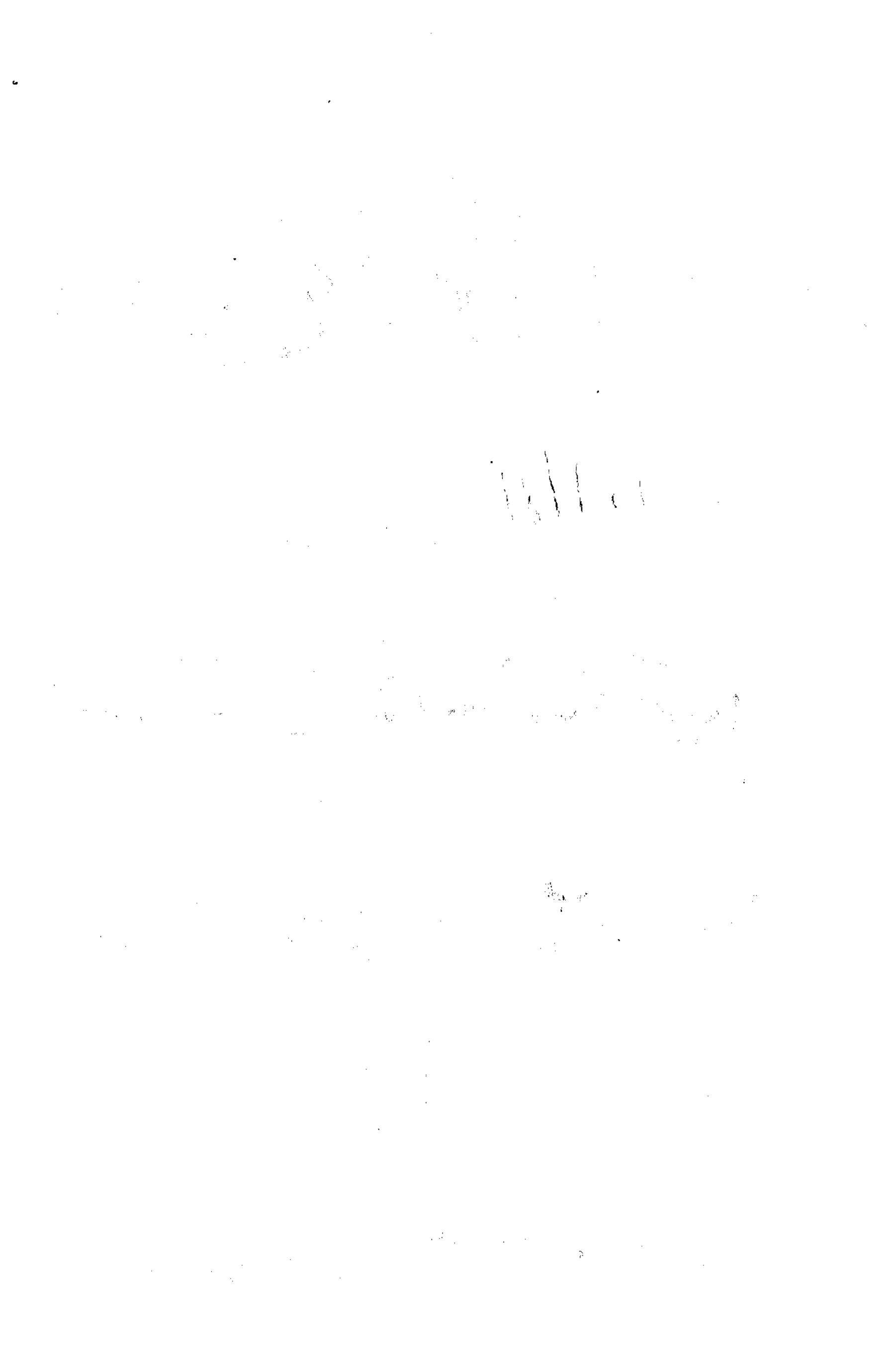
وادي ميزاب

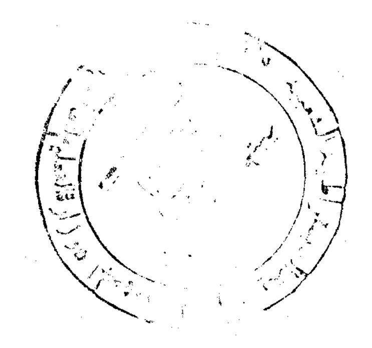
في ظل الحضارة الإسلامية

دينيا، تاريخيا، اجتماعيا

تأليف

بكير بن سعيد أعوشت





بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

الى العلامة الكبير والمعلم الصالح الشيخ عبد الله محمـد بن بكر بن أبي بكر الفرسطـائي ، الـذي أسس النظـام الاجتمــاعي الاسلامي ، العـزابة . ليكـون منهجـا مثـاليـا لـلأجيـال المسلمـة الصاعدة في مشارق الأرض ومغاربها .

إليك والى كل من سعى في تطبيق التربيـة القرآنيـة في سلوكـه ومجتمعه قولا وعملا .

أهدي هذه الصفحات المتواضعة .

قيل عن ميزاب

1 ـ ولقد كون الميزابيون حضارة وعمرانا في هذه المراكز التي كانت من قبل قاعا صفصفا واستمروا عائشين بها ، يعضون بالنواجذ على مذهبهم الإباضي وسط الأعاصير المحيطة بهم .

الأستاذ احمد توفيق المدني .

2 ـ والدليل الحاسم على نجاح حلقة العزابة هو إلغاء الأمية في ميزاب ، وهي صورة فريدة ، فالنجاح في القضاء على الأمية حلم غالٍ لم تنجح في الوصول اليه العديد من أصحاب النظريات الحديثة .

مجلة العربي ،العدد 286 ، سبتمبر 1982 .

3 ـ نظام العزابة ، قد يجد فيه علماء الاجتماع عامة شكلا اجتماعيا برهن على نجاعته وفاعليته طوال قرون عديدة ويمكن دراسته دراسة مقارنة على أوسع بساط .

الدكتور محمد الطالبي التونسي مقدمة من نظام العزابة ، عند الإباضية الوهبية في جربة لفرحات الجعبيري .

4 ـ إن ميزاب سحر وهيام ، وإنني كمصور لم أر في الغرب كله منظرا خلابا بجماله مثل جمال هذه المدن المعجزات التي برزت في الصحراء بإرادة الإنسان .

كلود باقار ، أضواءميزاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾(الروم:22)

يجب أن تشمل العناية المنهجية كل حلقات التاريخ الجزائري البعيد منه والقريب ، بحيث لاتهمل أية فترة من فتراته ،لأن مثل هذه العناية الشاملة تسمح باستجلاء مواطن العبر واستخلاص الدروس التي يهتدي الشعب بها في موافقه الحالية والمقبلة .

الفصل الرابع - الثقافة الوطنية من الميثاق الوطني - 1986 - ص 159)

تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف ، فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا يتمسكون به ، وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعي للعبادات ، وبالاعتراف يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحق الذي يعطيه لنفسه - اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ - وفي ظل الأخوة والسماح تغيب التحديات ، وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهبا أو اعتنقت مذهبا .

الإباضية بين الفرق الإسلامية

الأستاذ المرحوم الشيخ علي يحي معمر

المقدمة

إن هذا الكتاب يهدف بالدرجة الأولى ، الى التعريف بحضارة وادي ميزاب من حيث مكوناتها الروحية والمادية القائمة على العناصر الجغرافية والبشرية والتاريخية والدينية والاجتماعية .

وتاريخ الحضارات ، مهما كان يعد وعاء التجربة البشرية المتصلة بالزمان والمكان . فالإنسان المتحضر ، لايمكنه أن ينفصل عن ماضيه وحاضره ومستقبله ، وإلا أمسى حيوانا ، فاقد الوعي الزماني ، لأن الماضي هو الذي يؤثر ويعمق في الحاضر والمستقبل .

وعلى الشباب المسلم ، أن يعي ويدرك هذه الحقيقة البديهية في حاضره ومستقبله .

يقول الأستاذ صبحي الصالح في كتابه القيم ـ الإسلام ومستقبل الحضارة ـ ص :80 (وهكذا من طريق إدراكنا قيمة الزمن ، ومن طريق تصورنا استمرار الزمن في التجدد ، نستمر نحن أيضا في تجديد أنفسنا بالتذكر والتفكر والتعقل ، لنجعل غدنا أفضل من أمسنا ، ولِنُنَمِّيَ حياتنا في جميع الحقول والميادين . وشعارنا في هذا كله قول الله الكريم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ،إن الله خبير بما تعملون**﴾(سورة الحشر : 18)

ومن خلال هذا المنظور الزماني المؤثر في إنسان القرن العشرين الذي يختلف أشد الاختلاف عن الانسان الماضي ، وهذا يعود الى مظاهر الحضارة الراهنة ، لاسيما الوسائل الإعلامية التي جعلت العالم يعيش في بيت واحد من خلال قنواته المتعددة : مذياعا ، تلفزة ، مَجَّلاَتٍ ، جرائد ، كتبا ...الخ .

إن هذه الوسائل الإعلامية قد سلطت بعض الأضواء الكاشفة على وادي ميزاب المتميز بخصائص حضارته الإسلامية لكن هذه الدراسات لاتخلو من بعض الهفوات والمزالق الشعورية واللاشعورية ، ومن يريد هذه الحقيقة ، فعليه بالرجوع الى ما كتبه حاضرا مصطفى نبيل في مجلة العربي ـ العدد : 286 . سبتمبر :1982 . وكذلك ما كتبه كلود باقار الفرنسي في كتابه أضواء ميزاب .

أضف الى هذا بعض التحقيقات الإعلامية عن ميزاب ، التي تم استعراضها على الجمهور . اعتمادا على هذا ، رأيت من الواجب الأخلاقي والإسلامي ، أن أساهم مساهمة متواضعة في هذه اللبنة الحضارية حتى نصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي قد يقع فيها القارئ ، أن السامع أو المشاهد .

وغني عن البيان ،أن وادي ميزاب يتميز ببعض الخصائص الحضارية الإسلامية كبقية أجزاء العالم الإسلامي وهو لايختلف ولا يشذ عن المجتمعات البشرية الأخرى ، فيه المنبسط والمنكمش ، فيه المسرف والبخيل ، فيه المتخلق وغير

المتخلق ، إلا أن الدين الإسلامي هو المؤثر الى حد كبير في البنية الاجتماعية العامة .

وبالرغم من هذا ، فإنه لايجوز بأي حال من الأحوال أن نعتقد أن هذا المجتمع كله مثالي : إن هذه الظاهرة الاجتماعية لاوجود لها في أي مجتمع بشري .

وهنا ، يجدر بنا أن نشير الى بعض الناس بحكم تربيتهم الاجتماعية ونزعاتهم الذاتية وأحكامهم المسبقة يعتقدون بأن المجتمع الميزابي مجتمع منغلق على ذاته ... له عاداته الخاصة به ، ولا يريد أن يتطلع عليه الغير ، وهذه الحقيقة قد نلمسها كثيرا عند الأفراد الذين يزورون ميزاب أو يسمعون عنه أو يقرأون عنه .

ولعل أحسن دليل على ذلك ما جاء في مجلة العربي ، العدد 286 ، سبتمبر 1982 : يقول مصطفي نبيل (ومع بداية جولتي حذرني صاحبي بقوله : إن العديد من معتقداتهم تعتبر من خصوصياتهم التي لايرحبون بالكشف عنها ، ولا يرحبون بالغرباء كثيرا . وعندما نوجه سؤالا لأحدهم لاتتلقى الاجابة الا بعد استشارة شيخهم . وعندما التقيت بعدد منهم وجدت العكس تماما ، ولقيت منهم الحفاوة والترحيب ، والرد على جميع استفساراتي ، فالفارق لديهم كبير بين الأجنبي والعربي ، بل ولاحظت أن الكثيرين منهم يتابعون بشغف أحداث المشرق العربي ، ويناقشون قضاياه باهتمام بالغ) .

إن هذه الشهادة كافية في حق أبناء ميزاب ، فالميزابيون أغلبهم ، كرماء نزهاء يرجبون بالضيف كل الترحيب لاسيما إذا كان مسلما مستقيم السيرة . أما اذا وجدت فيه أخلاق غير إسلامية فإنهم يبتعدون عنه . هذه هي الحقيقة التي تسيطر على أبناء منطقة وادي ميزاب المسلم .

غير أنه من التجني بمكان أن يقال : إن الميزابيين منغلقون على ذاتهم ومتزمتون ، هذه مغالطة كل المغالطة . إن المسلم هنا في واقع الأمر ينطلق من مفهوم إسلامي عملي لاأكثر وهو يشارك عمليا ووجدانيا قضايا وطنه الجزائري والمغاربي والإسلامي والعالمي . وهو ينطلق من الثوابت الإسلامية لا أكثر ، فهل من المعقول أن يرضي بالثقافة الغربية السلبية في سلوكه واتباعها ، كالفصل بين القول والعمل ، والسفور المفتن ، وعدم الشعور بالتبعية العملية إسلاميا ... الخ .

هذه ثوابت إسلامية أصيلة ، فهل يجوز لنا أن نجتهد مع وجود النص القرآني الواضح جدا ؟ ولنتأمل معا قول الله عز وجل : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ (47 : المائدة)

﴿**يا أيها الذين ءامنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون**﴾ (2 ، 3 ، الصف)

﴿يا أيها الذين ءامنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين﴾ (51 : المائدة)

﴿يا أيها النبيء قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يوذين وكان الله غفورا رحيما﴾ (59 : الأحزاب)

أما القول بأن المجتمع الميزابي مجتمع محافظ ، متمسك بعادات صارمة متزمتة فهذه المفاهيم هي مفاهيم انشطارية ، غربية غير إسلامية إطلاقا ... إن القرآن الكريم والسنة الشريفة هما المقياس الوحيد لسلوك المسلم ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

ومما لاشك فيه أن الذين درسوا الحياة الاجتماعية في وادي ميزاب ، قد استعرضوا نظامه الاجتماعي العزابة . فقد كتب عنه بعض الباحثين كأحمد توفيق المدني ، وعلي يحي معمر ، وابراهيم طلاي وكلود باقار ، وبيار كوبرلي ، إن هؤلاء قد سلطوا الأضواء على نظامه الاجتماعي .

ولكن لا نستطيع أن نفهم جوهر طبيعة المجتمع المسلم في وادي ميزاب الا من خلال المنظور الإسلامي أي عن طريق علم الاجتماع الإسلامي ،الذي حددت قواعده .

هذه الحقيقة الأساسية قد دفعت الإباضيين الجزائريين الملتزمين بالفكر الإباضي الى النزوح الى وادي ميزاب .

لأن الإسلام هو الذي جعل الأمة العربية أمة متحضرة فأخرجها من جاهليتها العمياء الى الضياء الحضاري المثالي السليم .

نحن لانشك مطلقا ، بهذه الحقيقة البديهية التي لا يتعامى عنها إلا جاهل ماكر أو متجاهل ناكد بعظمة المجاهدين الشرفاء الذين شرفوا انتسابهم الى الإسلام . وحطموا الطاغوت الشرقي والغربي في ساحة الفداء والبناء والحرية .

أما الابتعاد عن هذا التفسير التاريخي والتعليل المنطقي فإننا سنقع لامحالة تحت النظريات المادية الشيوعية والنظريات المادية الغربية ، وبالتالي نفقد نظريتنا الإسلامية الشاملة في فهم وتفسير حضارتنا الإسلامية وحضارة غيرنا .

وعلى ضوء هذه اللمحة الخاطفة ، نستطيع أن ندرك أهمية العنصر الديني الإسلامي في تكوين حضارة وادي ميزاب التي هي جزء من الحضارة الإسلامية العالمية .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم صورة صادقة واضحة للقارئ الكريم عن وادي ميزاب الذي تحدى أبناؤه الظواهر الجغرافية القاسية والاقتصادية والاستدمار لأنه استمد تلك القيم الأخلاقية من القرآن المجيد كالإيمان ، والعمل الصالح ، والصبر .

وكان كل هذا من أجل المحافظة على الإسلام الأصيل الذي كرمنا الله به في الدنيا وجعلنا أمة مسلمة في سلوكها الشامل .

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (البقرة : 128)

غرداية في 16 شوال 1408 هـ .

الموافق ل : 1 جوان 1988 .

أعوشت بكير بن سعيد .

الفصل الأول

الملامح العامة عن وادي ميزاب : جغرافيا ، وتاريخيا ، وعقائديا .

تمهيد : الحضارة ودلالتها :

لقد أشرنا في المقدمة الى الاصطلاح الحضاري من دون أن نحدد تلك الدلالة تحديدا دقيقا .

لذا نرى من الواجب العلمي أن نعرف هذه الدلالة وعلاقتها بالمجتمعات البشرية حتى ندرك ماهيتها الأساسية .

الحضارة لغة يقصد بها : الاستقرار والاقامة في المدن والقرى والريف .

وهذا عكس البداوة المتميزة بالتنقل في الصحاري وفي البداوي .

لقد جاء في لسان العرب لابن منظور ما يلي : (الحضارة : الإقامة في الحضر والحضر والحضرة والحاضرة : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار ، والبادية يمكن أن يكون اشتقاق اسمها من بدا يبدو أي برز وظهر)

وهكذا نجد أن هناك تباينا بارزا بين الحضارة والبداوة .

ومن البديهي جدا ، أن الحضارة تتميز بالتفاعل الاجتماعي المركب ، أما البداوة فهي تتميز بالتفاعل الاجتماعي البسيط .

ولكن بالرغم من هذا ، فإن البداوة تكون أسبق وأصلا للتحضر ، فالحضارة ما هي الا مرحلة من مراحل التطور الذي مرت به المجتمعات البشرية قديما وحديثا .

وهذه الظاهرة الاجتماعية قد جعلت العلماء يهتمون بدراستها مبينين أثرها الفعال على البنيات الاجتماعية والاقتصادية .

ولعل من المفيد جدا ، أن نورد ما قاله العلامة ابن خلدون في المقدمة : (قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم ، العاجزون عما فوقه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم . ولاشك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه ، والضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه . فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ، ولا تنتهي الى الترف والكمال الا اذا كان الضروري حاصلا .)(1)

وعلى ضوء هذا ، نجد أن الحضارة ، تعد مظهرا من مظاهر سلوك الإنسان الذكي الذي سيطر على طبيعة محيطه الجغرافي [illegible] ولايزال يسعى بكل قواه للتحكم فيه وكذلك على قواه النفسية ، من خلال العلوم الإنسانية والمادية والرياضية .

وفي هذا المسار الاصطلاحي يحسن بنا أن نقول : إن الحضارة هي سلوك مكتسب متداخل يتجلى في الأنظمة والقيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية .... والتقنية المتجلية في الآلات

1 - ابن خلدون المقدمة ص : 167 .

التي صنعها الإنسان سواء كانت بسيطة كالمحراث والإناء أو معقدة كالطائرة والتلفزة الخ ...

ومن هنا نقول ونسمع دائما الحضارة الفرعونية والحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية الخ ..

وفي هذا المنحى الحضاري ، الذي نحن في صدد الكشف عن حضارة وادي ميزاب ، القائمة على الدين بالدرجة الأولى .

لأن هذا العنصر بالغ الأهمية في الحضارات العالمية الى يومنا هذا ، وحتى من يدعي أن الدين فكرة خرافية لاتقوم على أساس علمي خالص إلا أن هذا الزعم يعد مغالطة واضحة ، لاسيما النزعة الشيوعية ، التي لم تستطع أن تستغني عن فكرة الإيمان القائم على الفلسفة المادية .

وحسبنا دليلا على ذلك ما جاء في كتاب عرض موجز للمادية الدياليكتيكية لياخوت وبودوستنيك الشيوعيين ص 189 : (إن المادية الديالكتيكية هي النظرة العلمية الى العالم ، تربي الإيمان الراسخ بحتمية انتصار الإشتراكية في العالم أجمع ، وهذا الإيمان ليس عديم المبالاة ، ليس سلبيا ، إن هذا الإيمان ينبثق من المعرفة العميقة للقوانين العامة للتطور الاجتماعي ، التي اكتشفتها الماركسية اللينينية) .

من خلال هذا النص ، يتأكد لنا أن الفكر البشري لا ولن يستغني عن الدين لبناء فلسفة حضارة ما ، حتى تستقيم أسسها .

ولعل من الأحسن أن نترك الأستاذ قسطنطين زريق يبلور ويعمق هذه الفكرة الجوهرية قائلا : (لهذه الأسباب كلها اعتبرنا الدين مظهرا خطيرا من مظاهر الحضارة ، وفي رأينا أن فهم أية حضارة من الحضارات يقتضي ، في مقدمة ما يقتضي ، سَبْرَ غور الدين السائد فيها وإدراك روحه وعقائده ونظمه . ولا بد لنا من القول إننا لانقتصر في كلامنا هنا على الأديان الموحدة ، بل تشمل جميع الأديان التي ظهرت في التاريخ مهما تكن معتقداتها وإيمانها بالقوة أو القوى الإلهية التي أبدعت هذا الكون ، وتظل تهيمن عليه .

بل نذهب الى أبعد من هذا ، فنبسط هذه الملاحظة ذاتها حتى على المجتمعات التي تنكر هذه القدرة إنكارا صريحا أو تتجاهلها ولا توليها مقامها الأول . فإن لهذه المجتمعات ،وإن ضعف اهتمامها بالدين بهذا المعنى الذي نتحدث به أو أنكرته وحاربته ـ فالماركسية مثلا بهذا المعنى دين ، مهما اشتد استبعاد أبنائها ،لهذا الوصف ورفضهم إياه)[2]

نحن نرى أن هذا المدخل ضروري لاستجلاء المفاهيم الأساسية للحضارة وشروطها . حتى نتمكن من فهم مميزات وخصائص أي حضارة وبالتالي حضارة وادي ميزاب . وإلا أصبحت دراستنا تفقد طابع النقد الموضوعي ،وبعد هذا ننتقل

2 ـ قسطنطين زريق في معركة الحضارة ص : 96 .

الى جغرافية وادي ميزاب وأثرها في تلك الحضارة الإسلامية الصحراوية .

أ : وادي ميزاب جغرافيا :

إن الحقيقة التي لاغبار عليها ،أن الكائن الحي سواء أكان نباتا أم حيوانا أم إنسانا فإنه يتأثر كل التأثر بالمحيط الجغرافي الذي يترك بصمات قوية وحادة في طبيعة هذا الكائن الحي .

ومن هنا يجدر بنا أن ننظر الى وادي ميزاب من خلال هذه الزاوية الجغرافية . ومهما كان الأمر ، فإن الإنسان هو ابن بيئته الجغرافية .

ولقد بين العلماء المسلمون هذه الحقيقة العلمية ، لاسيما ابن خلدون الذي يقول في هذه الحال : (اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووغور العمران ، وفيها الأرض الحَرَّةُ التي لاتنبت زرعا ولا عشبا بالجملة ، فساكنها في شظف من العيش : مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ، ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان)[3]

نحن نرى أن هذه المقدمة ضرورية تجعلها نسلط بعض الأضواء على شبكة وادي ميزاب .

3 ـ مقدمة ابن خلدون : ص : 128 .

1 ـ الخصائص الجغرافية لشبكة وادي ميزاب :

إن الزائر حينما يحل بوادي ميزاب عن طريق الجو أو البر ، يلاحظ أن هناك شبكة متسلسلة من الجبال الصلبة المجردة المتميزة باللون الوردي الداكن ، ويطلق عليها الشبكة التي تشبه الى حد ما النسيج المشبك .

وعاصمة هذه المنطقة هي غرداية التي تبعد عن العاصمة ب 600كلم ، و800كلم عن قسنطينة شرقا و800كلم عن وهران غربا ، و1500كلم عن تمنراست جنوبا .

إن غرداية توجد على ارتفاع 515م من سطح البحر . وهذه الشبكة تتخللها الأودية الرئيسية وهي : وادي ميزاب وروافده ، ووادي بلوح ، ووادي متليلي ، ووادي النساء ، ووادي زقرير .

وهذه الأودية لها روافد متعددة ، وهي تجري عندما تصب الأمطار غزيرة على الشبكة وما حولها . وتتجه في أغلب الحالات من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وقد تصل الى نقوسة بورجلان .

وادي ميزاب جيولوجيا :

إن الجيولوجيين يرون أن شبكة وادي ميزاب يعود عصرها الى العهد الطباشيري الذي ينتمي الى الحقب المزوزوي .(4)

---

4 ـ انظر الأطلس العالمي المعهد التربوي الوطني الجزائري ، جيولوجية الجزائر ص : 13 ، الجيلوجيا لعبد الملك النحال ص : 21 .

وهـذا العصر الطبـاشيري يقـدر حوالي سبعين مليـون سنـة ، وقد امتد في الفترة الزمانية التي مضت عليها 75 مليون سنة .

يتميـز هـذا العصر بفيضــانــات ميــاه البحــار على الأراضي اليـابسـة ، وبـالتـالي ظهـور وبروز طبقـات الطبـاشير البيضـاء المترسبة مع ظهور السرطانات البحرية والنباتات الزهرية .

ولعل هذه الحقيقـة الجيلوجيـة ، نلاحظهـا جليـة في شبكـة وادي ميزاب لاسيما الجهة الغربيـة ، اذ نجـد سلسلـة من الجبـال الطبـاشيريـة ، ويعرف هـذا النـوع محليـا بـالأحجـار الكلخيـة المحتوية على بعض الأزهار والسرطانات المتحجرة في داخلها .

3 ـ وادي ميزاب مناخيا وزراعيا :

إن وادي ميزاب يسود فيـه المنـاخ الصحراوي الجـاف ، وهو قليل الرطوبة الا في حالة نزول الأمطار في الشبكة أو حولها .

والجـدير بـالتنـويـه أن درجـة الحرارة تختلف بين الشتــاء والصيف ، وبين الليل والنهار . أما في الشتـاء فـإن أقصى درجـة تبلغ 30د · وأدنى درجة تبلغ 1د

وأمـا في الصيف فـإن أقصى درجـة تبلغ 48د · وأدنى درجـة تبلغ 20د

وإذا عاد الانسان الى الرياح فإنه يلاحظ أنهـا ريـاح رمليـة وهي من النوع السيروكـو وهي التي تـأتي من الجنـوب الشرقي في الصيف حارة .

أما في الشتاء فهي باردة شمالية ،وتستمر هذه الرياح في بعض الحالات خمسة أيام كاملة .

فأما الأمطار فإنها قليلة جدا وهي تتراوح ما بين 10 و50 ملمترات سنويا ، وقد تزيد على هذا العدد في بعض السنوات وكذلك قد تشح السماء أحيانا .

والجدير بالذكر أن منطقة وادي ميزاب قد عرفت الجفاف الحاد الذي قضى على الأخضر واليابس ، لاسيما السنوات العجاف التالية : 1868 م ، 1920 م ، 1944 م . إلا أن التاريخ يقول لنا : إن المنطقة قد عرفت كذلك فيضانات خطيرة جدا ، كما حدث في السنوات التالية : 1900 م ، 1909 م، 1960 م .

وعلى أية حال فالمناخ على العموم جميل ، لاسيما في الخريف الذي يضفي على الواحة سحرا جذابا ، فيظهر في تلك الرمال الذهبية ، والسماء الزرقاء ، والأشجار المكسوة بالليمون الأصفر الفاقع ، والبرتقال الناصع ، والنخيل الباسقات بعراجينها المختلفة ألوانها بين الأصفر الفاقع ، والأحمر القاني .

إن الإنسان حينما يتأمل هذا الجمال الطبيعي الفاتن ، يدرك بداهة أن إرادة أهل ميزاب ،لا تعرف المستحيل في سجلها الحضاري ، ولعل هذه الإرادة القوية ، قدتجلت كذلك في استغلال مياه الأمطار كل الاستغلال ، حيث أخضعوها لهندسة الري بالتعبير الحاضر والشيء العجيب أن هؤلاء لايملكون الآلات القياسية الدقيقة كما هو الشأن الآن .

يقول العالم الجغرافي (جان برن) : (ليست قيمة هذه المنشآت البشرية فقط في الجهود التي بذلت وفي المدى الذي وصلت اليه من الانتاج والرفاهية والتي تحققت بالرغم من الظروف الطبيعية ، وإنما هي منشآت تكمن قيمتها في كمالها المطلق ،إذ أنها تمثل أروع ما يمكن تصوره أو تحقيقه في مجال الزراعة في الواحات)[5]

وإذا عدنا الى هذه الهندسة ، نلاحظ أنها تعود الى عشرة قرون مضت وهي تظهر في التخطيط التالي :

أ ـ بنيت عدة قنوات على حافة الجبال لري الواحات ، وهذه القنوات قد يزيد طولها على 4 كلم .

إن هذه القناة قدتحفر تحت جبال الرمال ثم تغطى بالأحجار الكبيرة وتمسك بالجبس المحلي ويجعل لها منافذ للتهوية .

ب ـ كل شخص يأخذ حقه الشرعي لري أرضه ونخيله من خلال منافذ محددة قياسيا .

ج ـ إذا كانت مياه الأمطار عادية غير غزيرة فإنها تسقى منها واحة النخيل .

أما إذا كانت غزيرة فإنها تفيض على السدود الاصطناعية وبها تتغذى منها آبار الواحات كلها .

5 ـ انظر : كلود بافار أضواء ميزاب السعي لتوفير المياه .

وأما إذا كانت المياة غزيرة جدا جدا ، فإن جزءا منها يصرف الى الوادي الكبير .

وفوق هذا ، فإن الميزابيين استطاعوا أن يحفروا في هذه الشبكة المجردة حوالي أربعة آلاف بئر ، إذ يترواح عمقها بين 20 ميترا الى 60 ميترا في بعض الحالات . وغرسوا عدة آلاف من النخيل تزيد على 300 ألف نخلة .

وهنا يتساءل القارئ الكريم ما هو السر في هذا العمل الإبداعي والإرادة التي لاتعرف الكلل إزاء ظواهر الطبيعة القاسية .

فالجواب يكمن أساسا في الثوابت الإسلامية الداعية الى العمل المثمر ، لأن الحديث عن العمل يتخذ صيغة الأمر في القرآن العظيم ، كقوله تعالى:**﴿قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**(105 ، التوبة)

ومن الأدلة القوية على واقعية العمل الإنتاجي ،اهتمام المنطقة بالنخيل لاسيما في القديم .

فالنخلة تعد هي الحياة كلها ، فالمسلم هنا يراها بهذا المنطق الواقعي ، لأنها سر الوجود ، منها غذاؤه ، ومواد بنائه، وطاقته وصناعته ، وأدواته ،وحبه الطبيعي لها . والقرآن الكريم

قد أشار الى هذه النعمة الالهية كقوله تعالى : ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون**﴾ (67 ـ النحل)

وعلى ضوء هذا نجد أن التمور لها طابع اقتصادي منزلي بالدرجة الأولى ، ولهذا نلاحظ عدة أنواع مختلفة من تلك التمور التي تخزن في خواب كبيرة ويستفاد كذلك من جذوعها قديما في بناء المساجد والمنازل . وهكذا نلاحظ أن النخيل له طابع اقتصادي محلي وداخلي ولهذا يحسن بنا أن نحلل هذا العنصر الحيوي .

4ـ وادي ميزاب اقتصاديا :

إن الاقتصاد يعد مظهرا من مظاهر عمل الإنسان ، وهذا العمل يختلف عن عمل الحيوان ، القائم على الغريزة التي تسيطر عليه كالنحل والنمل الذي يتميز بالثبات ولايتأثر الا بالعوامل الجغرافية أما عمل الإنسان فهو عمل قائم على الذكاء والحيلة والتصورات الذهنية بحيث يتعدى الجانب المادي الى الجانب النفساني والاجتماعي والأخلاقي والديني .

وهكذا ، فالإنسان هو الحيوان العاقل الوحيد الذي يغير سلوكه والتحكم فيه الى حد ما في بعض الظواهر الطبيعية . لأنه يحول المواد الخامة ، الى أشياء أخرى مفيدة ، يستغلها ليلبي حاجاته الضرورية والكمالية في هذه الحياة المعقدة .

إن منطقة الوادي منذ القديم، كانت منطقة حيوية ، لقد عرفت الصناعات التقليدية كنسج أردية الصوفية ، والزرابي وصناعة الأواني الفخارية والأدوات المنزلية .

أما في عصرنا هذا ، فإن المنطقة قد عرفت صناعات تحويلية متطورة جدا كالنسيج والحديد والزجاج ومواد البناء والتنظيف . وهكذا نجد ميزاب ، يعد من أهم المناطق الصناعية في الجزائر ، وهذا بفضل الإرادة والعمل المثمر ، هذه صورة مصغرة جدا للحياة الزراعية والاقتصادية ، ولننتقل الى الهندسة المعمارية الميزابية التي سنوضحها الآن .

5 ـ ميزاب معماريا :

يرى أكثر المفكرين أن العرب لم يكن لهم طراز معماري واضح المعالم ، قبل مجيء الاسلام إلا أن الإسلام قد أوجد فنا معماريا يتميز بخصائصه العامة . ولعل هذا الفن يتجلى في بناء المساجد ولواحقها ، ثم إن الدين الإسلامي قد أثر في بناء المساكن من حيث هندستها المعمارية .

وعلى أية حال فالإنسان الذي يزور وادي ميزاب أول مرة ، يلاحظ أن الإسلام قد ترك أثرا ولا يزال حتى ساعتنا هذه في الهندسة المعمارية الميزابية .

وهكذا تلاحظ أيها الزائر الكريم ، أن المدن الميزابية ،قد بنيت في أعلى جبل ، وفوق هذه القمة ، قد بنيت المساجد

وحولها كتاتيب عدة لتحفيظ القرآن الكريم والتعليم العام . وكذلك يوجد بيت كبير بجوار المسجد للنساء اللائي يصلين مع الجماعة . فيسمعن كذلك دروس الوعظ والإرشاد من قبل واعظ المسجد .

وإنك لتلاحظ أن مآذن المساجد الإباضية في وادي ميزاب قد بنيت على الشكل الهندسي المخروط دائريا ، وحول المسجد تجد السوق القديمة والبيوت التي بنيت على شكل دائري لأن طبيعة الجبال هي المتحكمة في هذه الهندسة . أما بالنسبة الى البيت هنا ، فهو يتكون أساسا من ثلاثة طوابق وقد يوجد كذلك دهليز تحت الطبق الأول ، وهو يعد أحسن مكانا لتكييف الهواء صيفا وشتاء .

إن الدار هنا مبنية على أساس إسلامي ، حيث نجد أن البيوت والمرافق الضرورية خاضعة لهذا المبدإ . بيتا للصلاة وبيتا مستقلا للضيوف في مدخل الدار . أما من حيث المناخ فإن أغلبية الديار هنا تريد أن تستغل الشمس ولهذا يبنى شباك كبير حتى تنساب منه الشمس والهواء في الطابق الأول . ومن هنا نلاحظ أن الديار مغلقة من جهة الشارع ما عدا باب الدار ، الذي له خصائصه الفنية الاسلامية .

وعلى ضوء هذا فإن الهندسة المعمارية الميزابية القديمة قد أخضعها الإنسان لواقعية صالحة استفاد منها كل الاستفادة .

وفي هذا المنظور ،فإن العامل الديني هو المسيطر الى حد الساعة في البناء .

يقول كلود بافار في كتابه أضواء ميزاب : (استطاع البناة أن يبقوا أوفياء لمبادئ القرآن ،فليس هناك قصور بل هناك اقتصاد في الوسائل وبساطة في الأشكال وكل شيء هناك على مقياس الإنسان)

أما بالنسبة الى اندري رافور وهو صاحب الكتاب ميزاب في الهندسة المعمارية فيقول : (إن هذا الجانب النموذجي بصفته طريقة معمارية ، يدعو الى التأمل والتفكير من جميع الأخصائيين في الوقت الذي تزداد فيه الأشكال المعمارية الشسعة في مدننا وقرانا)

إذن فهذه لمحة خاطفة عن الهندسة المعمارية الميزابية الخاضعة للثقافة الإسلامية الأصيلة وهي بعيدة عن الإسراف والأبهة والتصوير لاسيما قديما .

والحق يقال : إن هناك خطأ فادحا الآن يرتكب في الهندسة المعمارية الإسلامية في العالم الإسلامي سواء في ميزاب أو الجزائر أو المغرب الخ .. هو الاعتماد على الهندسة المعمراية الأوروبية وأخذ الخبرة من هؤلاء المهندسين وتطبيقها في عالمنا الإسلامي بحيث نلاحظ انشطارية خطيرة بين هذا المسلم والدار التي تسلم له . وبعد مدة وجيزة فإن تلك الدار تحول الى صورة فلكلورية بسبب التنافر الذي يمثل التناقض الواضح بين المسلم وما بنى له .

ولعل من المفيد أن نقول : إن الإنسان في العالم الإسلامي أو الصحراء بصفة خاصة ، يريد البساطة والفسحة والجمال الطبيعي والانسجام في مسكنه ، وبهذا يشعر شعورا قويا بالراحة النفسية ، والجمال حتى لايصاب بالقلق النفسي وما ينجر عنه من أمراض عصبية عصرية .

والجدير بالتنويه والذكر ، أن الهندسة المعمارية الميزابية ، قد طبعت عدة مناطق صحراوية أخرى ، لاسيما السودان الغربي ، إذ نجد التشابه الكلي في بناء المساجد ومآذنها ، لأن المدرسة الإباضية قد وضعت أقدامها في غرب إفريقيا بفضل دعاتها ورجال التجارة ، لاسيما الشيخ علي بن يخلف النفوسي الذي استطاع أن يهدي ملك مالي الى الإسلام هو ورعيته كما أشار الى ذلك الدرجيني .(6)

لقد أكد الأستاذ شاخت أن هناك تشابها كليا بين مساجد ميزاب ومساجد السودان ، لأن المسجد الإباضي يتميز بعدم وجود المنبر في المسجد قديما ، مع الصومعة المتميزة بالشكل المستطيل المخروطي .

وبالرغم من هذه الخصائص التي ذكرت هنا ، فإن تلك الهندسة قد عرفت بعض التغييرات وهذا شيء جلي .

وهكذا يمكننا أن نجمع بين الأصالة الأصيلة والحداثة المتطورة ، وهذا لايتنافى مع الفن المعماري القديم وهذه

6 - الدرجيني :ج 2 ، ص : 517 ، 518 .

الظاهرة تتجلى في بناء المساجد والمساكن الخاصة من طرف أبناء المنطقة كلهم .

أما الاعتماد على المهندسين الأوروبيين بدعوى المحافظة على الأصالة فهذا يتنافى مع المصلحة الوطنية العليا وتطور الحياة .

وأرجو أن يكون هذا البحث الجغرافي قد أوضح المطلوب وأزال بعض اللبس ولهذا أنتقل الى الموضوع التاريخي ، معتمدا على المصادر المباشرة ، وهذا التاريخ قد مثل دورا حيويا في تاريخ الجزائر أولا ثم وادي ميزاب ثانيا .

ب ـ وادي ميزاب تاريخيا :

إن وادي ميزاب المسلم ، له ذاتيته التاريخية ، التي تعد جزءا لا يتجزأ ولن تتجزأ من تاريخ الأمة الإسلامية جزائريا ، ومغاربيا ومشرقيا .

إن المنطقة لاتزال ، تعد قلعة التاريخ الإسلامي الأصيل المتجسم في المذهب الإباضي الذي له رؤيته الخاصة ، في بعض القضايا الاجتهادية الإسلامية ، كبقية المذاهب الإسلامية الأخرى لا أكثر .

1 ـ الإباضية عقيدة وليست عرقا :

إن كثيرا من الناس يعتقدون بأن الإباضية عرق وجنس وهذا هو الخطأ المحض نفسه ، فالإباضية تقوم على العقيدة الإسلامية الأصيلة ، لاعلاقة لها بالجنس والعرق والدم إطلاقا ، هذه هي

الحقيقـة الصحيحـة . ومن هنـا نجـد كثيرا من العرب والبربر والفرس والسودانيين قـد اعتنقوا هـذا المـذهب منـذ القرن الأول الهجري الى يـومنـا هـذا ، في عمـان والجـزائر وتـونس وليبيـا وزنجبار وبعض الدول الإفريقية الشرقية الساحلية .

وهذه العقيدة الإباضية تنسب الى عبد الله بن إبـاض العربي المسلم .

والجدير بالذكر أن نشير هنا الى أن وادي ميزاب قد سكنتـه قـديمـا بعض القبـائل البربريـة الزنـاتيـة التي اعتنقت المـذهب الإعتزالي ، الذي يعد من أشهر الفرق الإسلامية في عهـد الـدولـة العباسية . والمدرسة الاعتزاليـة تتميز بـالطـابع العقلي الصـارم ، لفهم النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ومؤسس هـذه المـدرسـة هو واصـل بن عطـاء للمتـوفى سنـة 131 هـ . وأشهر أعلامها هم : عمر بن عبيد ، والعلاف والنظام .

أهم تعـاليمهـا : 1 ـ التـوحيـد . 2 ـ العـدل . 3 ـ الـوعـد والـوعيـد . 4 ـ المنـزلـة بين المنـزلتين ـ 5 ـ الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن هـذا المَنحى الفكري يحسن بنـا أن نعـود الى المـذهب الإباضي الـذي صنفـه المؤرخون وعلمـاء الكلام قـديمـا وحـديثـا تعسفا ، ضمن فرق الخوارج كالأزارقة والنجدات والصفرية .

إن هذا الخطأ الكبير يوجد في الكتب التالية

1 ـ مقـالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري المتوفى سنة 330 هـ .

2 ـ الفرق بين الفرق للبغدادي المتوفى سنة 429 هـ .

3 ـ الفصل في الملل والنحل لابن حزم المتوفى سنة 456 هـ .

4 ـ التبصير في الدين للإسفراييني المتوفى سنة 471 هـ .

5 ـ الملل والنحل للشهرستاني المتوفى سنة 548 هـ .

أما الكتاب المعاصرون فهم بدورهم ، قد اعتمدوا على هذه الكتب القديمة ، من دون نقد الدلالة الخارجية تاريخيا وسياسيا ودينيا ، لما كتبوا عن الإباضية .

وفي هذه الحالة يحسن أن نشير الى بعض هؤلاء الكتاب .

1 ـ المذاهب الإسلامية للأستاذ أبي زهرة

2 ـ تاريخ الفرق الإسلامية للأستاذ الغوابي

3 ـ ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

4 ـ العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر د. رمضان البوطي .

5 ـ الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي .

والشيء المؤسف حقا أن هؤلاء الأعلام الكبار لم يعتمدوا على المصادر الإباضية المباشرة إطلاقا أو الاتصال بالأعلام الإباضية في دراساتهم عن المذهب الإباضي ،وهكذا ظهرت تلك الدراسات غير علمية بعيدة عن منهج البحث العلمي الدقيق وأخلاقيات الإسلام .[7]

---

7 ـ إن أغلبية الأعلام المعاصرين قد تجاهلوا خصائص البحث العلمي النزيه الذي يتطلب النقد الموضوعي لاسيما سلطة الدولة وعلاقتها بالمذهب الإباضي الذي حاربته .

ونرى لزاما علينا ،أن نقدم للقارئ الكريم نموذجا من هذه الدراسات التحريفية الخاطئة التي كتبت عن المذهب الإباضي ، ولنتخذ مثلا على ذلك دراسة الأستاذ وهبة الزحيلي :

2 ـ وقفة مع الدكتور وهبة الزحيلي :

يقول الأستاذ وهبة الزحيلي : (عبد الله بن إباض التميمي المتوفى عام 80 هـ ، في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان مؤسس مذهب الإباضية من الخوارج .

والإباضية أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربهم الى الجماعة الإسلامية رأيا وتفكيرا فهم لايرون مخالفيهم من المسلمين مشركين ، وإنما كفار نعمة ، ويحرمون دماء مخالفيهم في السر ، لا في العلانية ، ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان ، ولايحل من غنائم مخالفيهم الا الخِيْل والسلاح وكل ما فيه قوة في الحروب ،وتجوز شهادة المخالفين ومناكحتهم والتوارث معهم .

وما تزال هذه الفرقة قائمة في بلاد طرابلس الغرب ، وفي زنجبار ، وعمان ، ويسمون من أجل خروجهم على إجماع المسلمين (بالخوامس) لخروجهم عن المذاهب الأربعة .

وعمدة كتبهم في الفقه : (شرح النيل وشفاء العليل) للشيخ محمد بن يوسف أطفيش في عشرة مجلدات المطبعة السلفية بمصر 1342 هـ .

ومصادر فقهم : القرآن والسنة والاجماع والقياس ، إلا أن المراد بالإجماع عندهم هو إجماع طائفتهم ،ولا يأخذون بالسنة المعارضة للقرآن .

ومن مخالفاتهم الفقهية : إنكارهم حد الرجم للزاني المحصن ، لأنه لا يتبعض بالنسبة للعبد . ولأنهم لا يأخذون بفعل الرسول ﷺ لمعارضته القرآن الآمر فقط بجلد الزناة وقولهم بجواز الوصية للوارث عملا بآية ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين**﴾ والوالدان وارثان على كل حال ، لايحجبهما أحد عن الميراث . وقولهم بجواز الجمع بين المرأة وعمتها ، لعدم ذكره في القرآن ، وبأن المحرم من الرضاع هو الأم والأخت فقط لأنه المذكور في القرآن .

ويقولون بتخليد العصاة في النار ،لأن الإيمان عندهم قول وعمل .وهم الآن يرفضون تسميتهم بالخوارج)

(الفقه الإسلامي وأدته ـ الجزء الأول ـ ص 45 ، 46 ، دار الفكر ط 2، دمشق)

إن الناقد حينما يتأمل هذا النص ، يدرك أن الأستاذ الكريم وهبة الزحيلي قد وقع في أخطاء جسيمة جدا ،بالنسبة الى الروح العلمية لاسيما الموضوعية والدقة وأخلاقيات الإسلام والعلم .

ومن هنا نجد الأستاذ لم يعتمد على الدراسة الميدانيـة اذ في إمكانـه أن يتصل بـأصحـاب هـذا المـذهب اتصـالا مبـاشرا حتى يصدر حكمه الموضوعي .

وممـا زاد الطين بلـة أنـه لم يعتمـد على المصـادر الإبـاضيـة المبـاشرة التي تـزيـد في إثراء فكر الفقـه الإسـلامي كقـامـوس الشريعـة للعـلامـة جميـل بن خميس السعـدي فهـذه المـوسـوعـة تحتوي على 92 جزءا ،وكـذلـك بيـان الشرع للعلامـة محمـد بن ابراهيم الكنـدي وهــذه المـوسـوعــة بـدورهـا تحتـوي على 72 جزءا ،دون أن نغفل مولفـات القطب رحمـه اللـه . حيث يزيـد عددها على 200 كتاب .

ولولا الإطالة لأوردت عدة موسوعات فكرية الا أن أستـاذنـا الكريم وهبة الزحيلي وأمثـالـه لايريـدون الرجوع الى المصـادر الإبـاضيـة المبـاشرة القـديمـة والحـديثـة منهـا ، ليصححـوا تلـك الأخطـاء ويعودوا الى الجـادة الحق ثم لهم الحـق كـل الحـق أن يصـدروا حكمهم لهم أو عليهم من خلال تلـك النصوص المبـاشرة في حق الإباضية وآرائها .

والأدهى من ذلك وأمر أن هؤلاء الأساتذة حينما يكتبون عن المذاهب الإسلامية يقولون : إن هذا الموضوع شائك جدا ، ولـذا يجب على الباحث أن يكون ذا عقل ناقـد وذلـك بـالرجوع الى المصـادر مبــاشرة لنـزيـل كـل لبس وغمـوض ونعطي الحقيقـة العلمية حقها .

تأمل أيها القارئ الكريم ما قاله الأستاذ وهبة الزحيلي : (إن نقل حكم في مذهب من كتب المذاهب الأخرى لايخلو من الوقوع في غلط في بيان الرأي الراجح المقرر ، وقد عثرت على أمثلة كثيرة من هذا النوع) (المصدر السابق ص :9)

وانطلاقا من هذا ، يمكننا أن نفند ما كتبه عن الإباضية في النص السابق اعتمادا على الاستدلالات العقلية والقرائن النقلية الواضحة .

أ - إن الأستاذ وهبة الزحيلي لم يلزم نفسه بما عاهد به وذلك بالرجوع الى المصادر الإباضية المباشرة ، وهذا بالطبع يتناقض كل التناقض مع الروح العلمية التي تتطلب الصدق والإخلاص والصبر والنزاهة والتجرد من الأحكام الذاتية .

ب - لقد وقع في أخطاء تاريخية وجغرافية ، إن المؤسس الحقيقي الأول للمذهب الإباضي هو الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد المتوفى سنة93 هـ ، وليس عبد الله بن إباض ،ولقد ذكر مواطن الإباضية عمان ، زنجبار ، وطرابلس الغرب الا أنه جهل أماكن وجود الإباضية في جنوب تونس وجنوب الجزائر ، ميزاب . ثم جعل لقب الإمام أطفيش اسما بدلا أن يكون على هذا الاسم الصحيح محمد بن يوسف اطفيش .

ج - وقد ذكر أن الإباضية فرقة من فرق الخوارج دون أن يحدد تلك الدلالة لغويا وتاريخيا وعقائديا ، مع اعترافه أن إباضية اليوم يرفضون هذه التسمية ... إن أستاذنا سيجد الإجابة

الكاملة في الصفحات القادمة ، ولو قرأ الرسالة التي أرسلها عبد الله بن إباض الى عبد الملك بن مروان لأدرك أن هناك فرقا حاسما بين الإباضية والخوارج . ومما جاء في الرسالة (وإنا نبرأ من ابن الأزرق وأتباعه من الناس ، لقد كانوا على الاسلام فيما ظهر لنا حين خرجوا ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إسلامهم فنبرأ الى الله منهم) إن هذه الرسالة الطويلة موجودة في المصادر الإباضية القديمة .

- قوله بتكفير المخالفين لهم : إن الإباضية ترى أن كل إنسان اذا أقر بالشهادتين يعد موحدا مسلما ، وبالتالي لايجوز بأي حال من الأحوال أن يتعدى على دمه وماله وعرضه سرا أو علانية .

يقول الإمام محمد بن يوسف اطفيش رحمه الله : (التوحيد عاصم لدم الموحد وماله وسبيه ، ومن أحل مال الموحد أو سبيه أشرك) (الذهب الخالص : ص :28 طـ 1)

هـ - قوله إن الإباضية هم الخوامس ، إن الأستاذ الكريم وهبة الزحيلي بدلا أن يوحد الأمة الإسلامية على الكتاب والسنة ، أبى إلا أن يصنف المسلمين في مجموعات رياضية ، نحن نتساءل هنا ، كيف سوغ له منهجه الأكاديمي الانزلاق في هذا الاسفاف الفكري ، كأن الحق هو الانتساب الى المذاهب الأربعة قولا دون عمل ، ومن لم ينتسب اليها يعد خارجا عن الملة الإسلامية حتى لو طبق الاسلام في سلوكه ، وهكذا نجد

الحالة اللاشعوية هي المتحكمة في إصدار الأحكام في المذاهب الأخرى من طرف هؤلاء .

إن الإسلام الأصيل بريء من هذه التصنيفات المذهبية المتعصبة ، ولو اتقى هؤلاء العلماء الله ، لوجدوا أن المذاهب الاسلامية كلها صغيرة وكبيرة تعتمد على القرآن الكريم والسنة الشريفة في بلورة اجتهادها ولكن الشيء المؤسف أن المذاهب الإسلامية تحولت الى الهمزواللمز والتنابز بين المسلمين ، ألم يقل الله عز وجل : ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ (1 : الهمزة) ، ويقول الرسول الكريم : ﴿**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**﴾ رواه مسلم .

و ـ قوله إن الإباضية لا يأخذون برأي إجماع الأمة الإسلامية .

ومما زاد الطين بلة ،أن الدكتور الكريم قال : إن الإباضية لايعترفون الا بإجماع طائفتهم ، إن هذه التهمة التي ألصقها بالمدرسة الإباضية تفتقر الى أبسط دليل ، بحيث أن الطالب في الثانوية أو الجامعة اذا عاد الى المراجع الإباضية يدرك أن الإجماع عندهم هو إجماع علماء المسلمين كلهم . تأمل معي أيها القارئ العزيز ما أورده العلامة أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي في هذه المسألة : (الإجماع في عرف الأصوليين والفقهاء وعامة المسلمين عبارة عن اتفاق علماء الأمة على حكم في عصر وقيل اتفاق أمة محمد ﷺ في عصر على أمر وزاد

بعضهم ولم يسبقـــه خــلاف مستمر فيخرج على التعريف الأول عوام الأمة ممن لاعلم له فلا يقـدح خلافهم في انعقـاد الإجمـاع) (شرح طلعة الشمس على الألفية ، ج :2 ، ص :65)

ز - وقوله لايأخذون بالسنة المعارضة للقرآن .

إن الأستـاذ وهبـة الزحيلي بـدأ يرسل أقوالـه جزافـا ، بحيث كان يعتقد أن الأمانة العلمية هي ماسمعـه ونقلـه عن مصـادر غير الإبـاضيـة دون أن يكلف نفسـه مشقـة البحث أو مراسلـة أعـلام الإباضية وبالتالي قال إن الإباضية لايـأخـذون بـالسنـة النـاسخـة للقرآن الكريم ، ولو رجع الى المصادر الإباضية المبـاشرة لأدرك أن قوله كان واهيا لايحمل أية أمانة علمية وأخلاق البحث .

فالإباضية يرون أن نسخ القرآن بالسنـة المشهورة وارد . وإذا كان الحديث صحيحا متواترا ناسخا ، فإنهم يأخذون به .

يقول العلامة أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي :

وينســـــخ القرآن بـــــــالقرآن

والسنـــة الثـــابتـــة الأركـــان

(المصدر السابق ج 1 ، ص :289)

ح - قوله إن الإباضية ينكرون حد الرجم للزاني المحصن .

إن الإنسان العادي فضلا عن الإنسان العـالم ، حينمـا يتـأمل هذه الفرية الكبيرة التي ألصقها بالمذهب الإباضي يدرك بـداهـة أن أستاذنا الكريم قـد ركب مطيـة الـذاتيـة المفرطـة وعـدل عن

الحقيقة العلمية ولو كلف أحد طلابه أن يبحث عن رؤية الإباضية لوجد أن النصوص الإباضية واضحة تدحض هذه الفرية الخطيرة ولو الإطالة لأوردت عدة نصوص وفي هذه الحالة أقتصر على ما جاء في مسند الإمام الربيع بن حبيب رحمه الله : (أبو عبيدة عن جابر قال : الرجم والاختتان والاستنجاء والوتر سنن واجبة) (ج 3 ، ص :48)

ط ـ قوله بجواز الوصية للوارث عند الإباضية :

هذه الفرية تشبه أختها مدعيا أن الإباضية يجيزون الوصية للوارث بدعوى أن الإباضية لايأخذون بالسنة المعارضة للقرآن الكريم ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين**﴾ (180 : البقرة)

إن الأستاذ وهبة الزحيلي لايزال مصرا كل الإصرار على عدم الرجوع الى المصادر الإباضية مخافة أن يغير ويصحح المفاهيم الخاطئة التي قيلت زورا في المذهب الإباضي ،لو رجع الى مسند الربيع بن حبيب رحمه الله لوجد فيه هذا الحديث الشريف الواضح (أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن النبيء ﷺ قال : «**لا وصية لوارث ولا يرث القاتل المقتول عمدا كان القتل أو خطأ**» ج :2 ، ص :63 .

إن هذا الحديث يعد ناسخا للآية السابقة ، يقول الإمام الكبير عامر بن علي الشماخي : (وتجوز الوصية لجميع الناس من أهل التوحيد الا الوارث وعبده والقاتل وعبده . وأما الوارث

فلا تجوز لـه الوصية لقولـه عليـه السـلام : **لاوصيـة لـوارث»** (الإيضاح ،ج :4 ، ص :476 / 477)

ي : قوله إن الإباضيـة يجيزون الجمع بين المرأة وعمتهـا ، لعـدم ذكره في القرآن . لايـزال الأستـاذ وهبـة الـزحيلي يطلـق أحكـامـه اللاموضـوعيـة في حـق الإبـاضيـة ، كـأن الرجـوع الى المصادر الإباضية يعد خرقا للمنهج الذي سلكه الكتاب القـدمـاء الذين حرفوا الفكر الإباضي لخدمة أهداف سياسية خالصـة وضرب وحدة الأمة الإسلامية .

وإذا عدنا الى المصادر الإباضية كلها نجدها أنها تحرم الجمع بين المرأة وعمتها وكذلك بين المرأة وخالتها.

لقد جاء في مسند الإمام الربيع بن حبيب مـا يلي : (أبو عبيـدة عن جـابر بن زيـد عن أبي هريرة عن النبيء ﷺ قـال : ﴿**لا يجمـع بين المرأة وعمتهـا ولا بين المرأة وخـالتهـا**﴾ (ج : 2 ، ص :31)

يقول العلامـة الشيخ السـالمي شـارحـا هـذا الحـديث ولفـظ العمة والخالة يصدق على عمتها وخالتها وعلى عمة أبيها وخـالـة أبيها ، وهكـذا وإن علون ، والتحريم شـامل بينهمـا وبين عمتهـا القريبة أو البعيدة (شرح الجامع الصحيح مسنـد الإمـام الربيع بن حبيب . ج : 3 ، ص : 24)

ك : قوله إن الإبـاضيـة يقولون بـأن المحرم من الرضـاع هو الأم والأخت فقط ، لأنه المذكور في القرآن .

إن الدكتور وهبة الزحيلي في هذه المسألة يشبه الى حد ما كاتب قصة خيالية تحمل في طياتها اللامعقول . ومن هنا يرى أن الإباضية لا يأخذون بالسنة ولا يعملون بها لأن الإباضية في زعمه يقيدون حرمة الرضاع في الأمهات والأخوات فقط لأن هذه الحرمة ثابتة بالقرآن عندهم لا غير .

أقول في هذه التهمة التي نسبها الى المذهب الإباضي إنها أفقدته قيمته العلمية بحيث وقع فريسة أهوائه فلم يحاول أن يربط فكرته الضالة بقرينة ملموسة من الأدلة النقلية الكثيرة عند الإباضية .

وعلى أية حال فأنا أحيله رأسا الى المصدر المباشر ليصحح له هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبه في حق وحدة الأمة الاسلامية . لقد جاء في مسند الامام الربيع بن حبيب : (أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن عائشة رضي الله عنها قالت أن أفلح أخا أبي القعيس وهو عمي من الرضاعة استأذن علي وذلك بعد أن نزل الحجاب فأبيت أن آذن له فجاء رسول الله (ص) فأخبرته فقال : «**آذني له فإن الرضاع مثل النسب**» (ج 2 ص 32)

وفي ضوء هذا يمكننا أن نستشهد كذلك برأي العلامة الشيخ اطفيش رحمه الله حيث يقول : (وأن سبب اللبن ماء الرجل والمرأة معا فالرضاع منهما وهو كالجد لما كان سبب الولد أوجب تحريم ولد الولد به لتعلقه بولده ، وأن الوطء يَدُرّ اللبن فللرجل فيه نصيب وفي الحديث «**يحرم من الرضاع ما**

يحرم من النسب» أي ويباح من النسب . قال ابن حجر : هذا بإجماع فيما يتعلق بتحريم النكاح وتوابعه وانتشار الحرمة بين الرضيع وأولاد المرضعة وتنزيلهم منزلة الأقارب في جواز النظر والخلوة والمسافرة) (شرح كتاب النيل وشفاء العليل ، ج 7 ، ص :18)

ق ـ قوله إن الإباضية يقولون بتخليد العصاة في النار ، لأن الإيمان عندهم قول وعمل ، قبل أن نعالج هذه المسألة ، فلابد من القول إن هذه القضية في أصلها قضية عقائدية فليست فقهية .

وبالرغم من هذا نقول إن الإباضية يرون أن الإيمان هو تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان والجوارح . والواقع أن الجدال في هذه المصطلحات الإسلامية لاقيمة له أمام العمل التطبيقي وإلا أصبح الإسلام فكرة جوفاء لاقيمة لها في الحياة العامة كالورقة النقدية اذا فقدت قيمتها المطلقة بسبب ما .

لقد صدق أحد الشعراء لما قال :

كل نهر لاارتواء به   لا أبالي سال أم نضبا
كل نجم لا اهتداء به   لا أبالي لاح أم غربا

فالإباضية يرون أن الدين والإيمان أسماء متعددة لمسمى واحد ،وهو طاعة الله تعالى وتطبيق الإسلام عمليا .

وأيا ماكان الأمر فإن الإباضية اعتمدت على أدلة واضحة بحيث نجد الآيات القرآنية التي تدعو الى الإيمان المرتبط بالعمل الصالح .

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ (البينة : 7)

لقد سئل سيدنا حذيفة عن النفاق ما هو قال :(الرجل يتكلم بالإسلام ولا يعمل به) ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :«**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»رواه البخاري ومسلم واحمد .

﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ (الصف : 2 ـ 3)

بعد هذه الأدلة الواضحة ، كيف يمكننا أن نجزئ الاسلام الى قول دون عمل . إن الإسلام هو وحدة متماسكة من الإيمان والقول والعمل الصالح . هذا هو موقف الإسلام الأصيل الذي اعتنقته الإباضية ، فالصحوة الإسلامية الحالية أصبحت تدعو الى هذا المبدإ السليم الصحيح ولولا هذا لما كان هناك تغيير .

وفي ضوء هذا التصور الاسلامي الأصيل فإن الإباضية يرون أن المسلم الذي ارتكب كبيرة دون توبة نصوح فإن مصيره جهنم خالدين فيها . لأن الإنتساب الى الاسلام دون عمل صالح يعد نفاقا وخروجا صريحا عن الشريعة الإسلامية .

وفي هذا التصور الأصيل فإن الإباضية استشهدت بعدة آيات قرآنية وأحاديث شريفة .

كقوله تعالى ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما**﴾ (النساء :93)

﴿**وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها**﴾ (التوبة : 68)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا فيها ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا فيها أبدا ومن نزل من جبل فقتل نفسه فهو ينزل في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا**﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي .

عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبيء ﷺ أنه قال : ﴿**لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر**» (رواه احمد والحاكم والنسائي)

وهكذا نجد الإباضية ينطلقون من ثوابت إسلامية أصيلة بحيث لانستطيع أن نحرفها . وهكذا نجد العلامة السالمي يقول :

ومن عصى ولم يتب يخلد
في النار دائما ، بهذا نشهد

هـذا هـو الرد المقتضب جـدا ، فجـوابنـا كـان واضحـا كـل الوضوح وأنـا أتحـدى أي بـاحث أن يقـول :إن كتـاب المقـالات القديمة والحديثة ... كانوا موضوعيين في أبحاثهم عن الإباضية ، إن العلة تكمن في عدم الرجوع الى المصـادر الإبـاضيـة ، بل إن هذه الدراسات كانت مليئة بـالإفتراءات المحضـة ، والمفـارقـات العجيبة والتناقضات الواضحة في تلك الأبحاث التي كانت تحت تأثير السياسة الحاكمة المتناقضة مع العدالة الإسلامية التي تجعل النـاس سـواسيـة أمـام حكم اللـه فـلا فرق بين أبيض وأسـود إلا بالتقوى .

إلا أن هذا المبدأ السليم ، جعل السلطة السياسية الظـالمـة ، تطارد المذهب الإباضي واعتبرت أنصاره خوارج عن ملـة الإسلام وبالتـالي شوهت آراءهم السيـاسيـة والـدينيـة ، وعليهـا أن نطرح السؤال التالي : هل الإبـاضيـة فرقـة من فرق الخوارج كمـا يزعم أصحاب المقالات بذلك ؟

هل الإباضية خوارج ؟

قبل الإجـابة عن هـذا السؤال يحسن للنـاقـد الموضـوعي أن يحدد الدلالة الخارجية ، من عدة زوايا دينيا وسياسيا وتاريخيـا دون أن نهمل العامل الزماني والمكاني وأثرهما في تطور اللغة .

ومهما كان الأمر ، فإن هذه الـدلالات العـامـة لاتنطبق على المدرسة الإباضية كما يرى أعلامها قديما وحـديثـا ، ثم لاتوجـد أي علاقة بين الإباضية والخوارج ما عدا قضية التحكيم .

والحق يقال إن السياسة الأموية المرتدة عن الإسلام هي التي ألصقت هذه التهمة بالمذهب الإباضي الذي يناقضها في أساسها .

أضف الى هذا أن هذه الدلالة الخارجية يجب أن تنعت بها كل الثَّوَرَات التي ظهرت منذ وفاة رسول الله محمد ﷺ الى نهاية خلافة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه .

أ ـ حركة المرتدين الذين ظهروا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ب ـ الثورة الثانية التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه سنة 35 هـ ، من قبل الناقمين وكان مقتله يعد بلا شك بداية الفتن والانقسامات الاسلامية حتى عصرنا هذا .

ج ـ الثورة الثالثة هي التي قام بها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام إذ بايعا عليا كرم الله وجهه ثم نقضا بيعته واتفقا مع عائشة رضي الله عنها على الخروج على علي ـ رحمه الله ـ ولقد قامت تلك الحروب في سنة 36 هـ . وعدد القتلى زاد على عشرة آلاف وتعرف هذه الحرب بوقعة الجمل .

د ـ الثورة الرابعة التي قام بها معاوية بن أبي سفيان على علي رحمه الله سنة 37 هـ ، وهذه الحرب تعرف بواقعة صفين .

هـ ـ الثورة الخامسة هي التي قام بها أنصار علي رحمه الله ورأوا أن إمامته شرعية فلا بد أن يحارب الخارجين عنها .

إن هؤلاء رفعوا الشعار التالي : (جزعنا من البلية ، ورضينا بالقضية ، و..... الدنية ولاحكم إلا لله)

فقد وقعت هذه المعركة الشديدة في النهروان سنة 38 هـ ، بزعامة الصحابي عبد الله بن وهب الراسبي - رحمه الله . ويعرف هؤلاء عند المؤرخين بالخوارج ، ومن هنا فلا بد أن نطرح السؤال الموضوعي كيف نسمي أصحاب الثورات السابقة ؟

لماذا نجد المؤرخين أجمعهم يصرون على إطلاق لفظ الخوارج على أنصار علي ، الذين رفضوا الخديعة وأدركوا بعدها السياسي والديني والدنيوي ، ثم إن دلالة الخارجية لها معنى الجهاد في سبيل الله لقوله تعالى :﴿**ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما**﴾ (النساء : 100)

لذا نرى من واجبنا الأخلاقي ، أن نحكم العقل والنقد الموضوعي قبل أن نطلق هذه الدلالة اللفظية على الإباضية والتي هي بعيدة كل البعد عنهم بحيث لاتنطبق عليهم سلبا ولا إيجابا ، وحتى تاريخيا .

يقول عبده الله بن إباض في رسالته التي بعثها الى عبد الملك بن مروان الأموي : (وإنا نبرأ من ابن الأزرق وأتباعه من الناس لقد كانوا على الإسلام فيما ظهر لنا حين خرجوا ، ولكن ارتدوا منه ، وكفروا بعد إسلامهم فنبرأ الى الله منهم)

ويقول العلامة أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني (500 ـ 570 هـ) : (وزلة الخوارج نافع بن الأزرق وذويه حين تأولوا قول الله ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ (121 : الأنعام) فأثبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصي ما أتوا ولو أصغرها

وأما قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش رحمه الله فيقول :(والخوارج ـ قبحهم الله ـ قالوا : إن نصب الإمام غير واجب ، وأنه يجب على الناس أن يقيموا كتاب الله فيما بينهم ، والجماعة لاتقوم بذلك)(10)

إن الأدلة التي قدمت هنا تبين بكل يقين أن هناك حدا فاصلا بين الإباضية والخوارج ، بحيث أن الخطأ الفادح الذي ارتكب في حق الإباضية هو عدم الرجوع الى مصادرهم المباشرة أو أعلامهم . وكل هذا يتنافى مع البحث العلمي ومناهجه وأخلاقه .

لذا نرى من الأمانة العلمية ، أن نورد ما بحث فيه الدكتور الأردني عوض خليفات مدة أربع سنوات كاملة في نشأة الحركة

10 ـ شرح كتاب النيل وشفاء العليل ج 13 ، ص : 8 . وقال رحمه الله : ومن أحل مال الموحد أو سلبه أو سبيَه أشرك (الذهب الخالص ص : 28)

هذه المبادئ نابعة من القرآن والسنة والوحدة الإسلامية ولكن هل حكم الغير للإباضية في دمهم ومالهم وعرضهم أم حكم عليهم بالعكس ؟ إن الإجابة يعرفها التاريخ القديم والمعاصر جيدا .

الإباضية وقد اعتمد في بحثه هذا على مصادر إباضية وغير إباضية لاسيما القديمة منها إذ يقول : (إن الإباضيين ليسوا خوارج كما تزعم بعض كتاب المقالات والملل والنحل وكما يدعي بعض الكتاب المحدثين الذين قلدوا هذه المؤلفات دون تدقيق وتمحيص .

والواقع أن الإباضية لايجمعهم بالخوارج سوى إنكار التحكيم .

إن المدقق في المصادر الفقهية الإباضية يجد أن أصحاب المذهب الإباضي من أكثر المسلمين اتباعا للسنة الشريفة والاقتداء بها . أما ما تلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنها هو ناتج عن أحد أمرين الجهل أو التعصب . إنهم وحدهم الذين طبقوا مبدأ الشورى في الحكم بعد الخليفتين أبي بكر وعمر)(11)

وأما الدكتور السينغالي عمر بن الحاج محمد صالح با فيقول : (فالإباضية ـ على ضوء ما تقدم ـ ليسوا بخوارج ، بل هم مذهب كأي مذهب إسلامي آخر وإن كان هناك قاسم مشترك بين الإباضية والخوارج فهو رفض التحكيم وعدم إقرار شرعية الحكم الأموي المتمخض عن تمرد معاوية على الإمام الشرعي

11 ـ الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ص : 53 ـ 54 .

المنتخب بالشورى نصا (أي الامام علي غير أنهما مختلفان باختلاف آرائهما ومبادئهما)(12)

وعلى ضوء هذين النصين يمكننا أن نقول إن الأستاذين الكريمين قد اعتمدا على أوثق المصادر الإباضية المباشرة في التاريخ والفقه وعلم الكلام ، حتى تمكنا علميا من إصدار هذا الحكم الموضوعي الذي تفتقر اليه الدراسات القديمة والحديثة التي تدرس الفكر الإباضي ثم تكتب عنه .

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن المدرسة الإباضية من تقديم فكرة موجزة عنها تاريخيا وعقائديا .

3 ـ لمحات عن تاريخ المدرسة الإباضية وتاريخ ميزاب

أ ـ الإمام جابر بن زيد مؤسس المذهب الإباضي :

يستطيع المؤرخ الناقد اذا درس المصادر التاريخية الإسلامية القديمة بإمعان وروح نقدية ، أن يدرك أن المؤسس الأول للمذهب الإباضي هو العلامة الفقيه أبو الشعثاء ،جابر بن زيد الأزدي العماني العربي المسلم الذي ولد بين **18 و22 للهجرة** ، في مدينة الفرق العمانية .

12 ـ عمر بن الحاج محمد صالح با دراسة في الفكر الإباضي ص : 74 .

لقد أخبرني أحد الأصدقاء من سوريا أخيرا ، أن الأستاذ الكريم وهبة الزحيلي قد عدل عما كتبه عن الإباضية معترفا بأخطائه لما اعتمد على المصادر الإباضية ، ثم توصل إلى نفس فكرة الأستاذين محمد عوض خليفات ومحمد صالح با ، وهذا في طبعته الأخيرة لكتابه ، إن الرجوع إلى الحق فضيلة . بوشت بحير

أما وفاته فكانت بالبصرة سنة93 **هجري .**

لقد أخذ العلم عن الصحابة رضي الله عنهم ، في البصرة والكوفة ، والمدينة ومكة .

ولقد جاء في طبقات الدرجيني ما يلي : (جابر بن زيد[13] الأزدي رحمه الله بحر العلوم العجاج ، أصل المذهب وأسه الذي قام عليه نظامه .

قال ابن عباس رحمه الله : اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه) فلقد أخذ العلم رحمه الله عن الإمام عبد الله بن وهب الراسبي .

وكانت هناك علاقة قوية وودية بين جابر بن زيد وزعيم القعدة في البصرة وهو أبو بلال مرداس بن أدية التميمي .

وكان تلاميذ جابر بن زيد كثيرين جدا ، إذ أخذوا العلم عنه كضمام بن السائب والربيع بن حبيب ومسلم بن أبي كريمة وعبد الله بن إباض ...الخ . 14

ب ـ الإمام عبد الله بن إباض :

إن الإباضية نسبة الى الإمام عبد الله بن إباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من بني مرة وهي قبيلة عربية عراقية أصيلة انحدرت من الجزيرة العربية . لقد ولد في زمن معاوية بن أبي

13 ـ الدرجيني طبقات المشائخ بالمغرب ج 2 ص :205 .

14 ـ يحي محمد بكوش : فقه الإمام جابر بن زيد ص : 34 ـ 68 .

سفيان (40 ـ 60 هـ) أما وفاته فقد كانت في أواخر أيام عبد الملك بن مروان المتوفى سنة 86 هـ .

والجدير بالذكر أن الأمويين هم الذين سموا أتباع جابر بن زيد بالإباضية .

يقول الشيخ الدرجيني رحمه الله : (كان عبد الله بن إباض إمام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التفريق ، فهو العمدة في الاعتقادات ، والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات ، وكان قدوة لأهل الفضل فإليه النسبة اليوم في العقائد)[15]

وعلى ضوء هذا ، فإن عبد الله بن إباض يعد مناصرا وتلميذا لجابر بن زيد ، فقد اهتم بتطبيق آراء أستاذه في الواقع المعيش ... إن داره كانت خلية حية لأتباع جابر بن زيد رحمه الله والذين عملوا معا لإبراز الآراء الإباضية الدينية والسياسية القائمة على القرآن والسنة إزاء قضية الحكم التي لاتفرق بين هذا وذاك .

ج ـ الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة .

يعد أبو عبيدة الركن الثالث في المدرسة الإباضية تاريخيا ، استطاع أن ينظم الحركة الإباضية بعد أستاذه جابر بن زيد[16]

15 ـ طبقات المشائخ بالمغرب ج 2 ص :214 .

16 ـ أبا عبيدة كان رحمه الله زنجيا فقيرا يقتات بعرق جبينه حيث احترف مهنة القفاف فالعبرة بالتقوى والعلم أيها المسلمون ، أين نحن ؟

لقد اعتمد رحمه الله على العلم ، فأنشأ مدرسة سرية في البصرة لتخريج دعاة الحق . إلا أن الحجاج قد سجنه ، ولما توفي الحجاج أطلق سراحه سنة 95 هـ . فلم يلن ، فاستمر في جهاده المستميت فقد تخرج على يده حملة العلم ، الذين قضوا خمسة أعوام معه في سرية تامة في تلك المدرسة ، وهؤلاء هم سلمة بن سعد والربيع بن حبيب ، وعبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتي ، وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني والجلندي ابن مسعود . أما بالنسبة لوفاته فقد توفي حوالي سنة 150 هـ ، في ولاية أبي جعفر .

وهكذا نجد أن هذه البذرة المباركة التي غرسها أبو عبيدة مسلم في مدرسته الإسلامية استطاعت أن تعطي ثمارها الطيبة في حضرموت وعمان والمغرب العربي الكبير وذلك بظهور دول إسلامية في تلك البقاع .

الدولة الرستمية :

إن انتشار المذهب الإباضية في شمال إفريقيا يعود أساسا الى سلمة بن سعد الذي يعد أحد تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وهذا التلميذ الذكي استطاع أن يرسل الى أستاذه أربعة طلبة من أبناء المغرب .

ولم تمض ست سنوات حتى تمكن الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح اليَمَنِي من تأسيس أول دولة إسلامية قائمة على

المذهب الإباضي في ليبيا وذلك سنة 140 هـ ، إلا أن أبا المنصور العباسي تمكن من القضاء على هذه الإمامة سنة 144 هـ ، بقيادة محمد بن الأشعث .

والجدير بالذكر أن عبد الرحمن بن رستم الذي كان واليا على القيروان سار بجيشه لمساعدة أبي الخطاب عبد الأعلى ولما بلغه وفاة أبي الخطاب وانهزامه لم ييأس فذهب الى القابس والقيروان وبعدها الى المغرب الأوسط وكان محمد بن الأشعث يلاحقه بجيشه ، وتمكن من النزول على قبيلة لماية . إذ وجد كل مناصرة من هذه القبيلة ، ثم إن أنصاره التحقوا به ، فاستطاع أن يؤسس هو وأنصاره أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة ، وذلك سنة 160 هـ ، واتخذوا تيهرت عاصمة لها .

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 170 هـ ، ترك دولة قوية قائمة على الكتاب والسنة والعدل والمساواة التامة .

يقول ابن الصغير المالكي : (فلم تزل أموره كذلك وعلىذلك والكلمة واحدة والدعوة مجتمعة ولا خارج يخرج عليه ولا طاعن يطعن عليه الى أن اخترمته المنية)(17)

وعلى أية حال فإن الدولة الرستمية استمرت في حكمها 136 سنة من سنة 160 هـ ، الى 296 هـ .

صحيح أن الدولة الرستمية قائمة على المذهب الإباضي

17 ـ أخبار الأئمة الرستميين ابن الصغير ص : 36 .

ولكنها تركت حرية الفكر والرأي وحرية المذاهب الإسلامية الأخرى دون مضايقة .

لقد ازدهرت في عهدها العلوم النقلية والعقلية حتى لقبت تيهرت بعراق المغرب وهذا بفضل حرية الفكر كما رأيناه .

وأحسن دليل على ذلك ما أورده ابن الصغير الذي قال :(ومن أتى الى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة وكذلك من أتى من الإباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك)(18)

وهكذا استمرت الدولة الرستمية في أداء دورها الديني والثقافي وقامت بنشر الإسلام في المغرب العربي والسودان .

يقول لوبون في كتابه حضارة العرب (كان للتجار من رعايا الدولة الرستمية وغيرها الدور الرئاسي في إخراج قبائل تلك البلد من بداوتها ،وتكوين سكانها وشحذ أخلاقهم ومداركهم عبر السنين والحقب)

ولذلك لانستغرب اذا ما قلنا : إن الحرية الفكرية والاعتقادية وترك جميع الفرق حرة ، بحيث لم يضايقوها ولا طردوها عجلت بسقوط الدولة الرستمية لأن المدرسة العبيدية قد استغلت هذه الحرية ، دون أن نهمل كذلك العوامل الداخلية بالنسبة للأسرة الرستمية الحاكمة التي بدأ أفرادها في صراع وتنافس مقيت من أجل الحكم .

---

18 ـ المصدر السابق ص : 102 .

لا جدال أن هذا العامل السياسي قد قتل القيم الأخلاقية المثالية في بعض أبناء الرستميين الذين انحرفوا عن طريق الاسلام وانغمسوا في الحضارة ماديا .

إن هذه العوامل الأساسية كلها عجلت بسقوط الدولة الرستمية في شوال 296 هـ . على يد عبد الله الشيعي .

هـ ـ الإباضية وإنشاؤهم لمدينة سدراتة

أن الحقيقة التي لاجدال فيها أن المذهب الإباضي وجد مقاومة عنيفة ومطاردة دائمة من الدولة العبيدية التي أسسها عبيد الله المهدي الشيعي في المغرب سنة 296 هـ .

وهذه الدولة العبيدية تناقض كل التناقض المذهب الإباضي في مسألة الحكم القائم على العدالة الإسلامية التي تجعل الناس سواسية لقول الله عز وجل : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ (النساء :1)

عن جابر بن زيد قال ابن عباس قال ﷺ : «**إن أمر عليكم عبده حبشي مجدوع الأنف فاسمعوا وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله** » (الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب)

أما الدولة العبيدية فقد جعلت حكمها قائما على الإمام المعصوم الذي رفع الى درجة الألوهية .

وحسبنا دليلا على ذلك ما قاله الشاعر ابن هاني في مدح المعز لدين الله الفاطمي الشيعي حيث يقول :

مـا شئت لاما شـاءت الأقـدار   فـاحكم فـأنت الـواحـد القهـار
وكـأنمـا أنت النبيء محمـــد   وكـأنمـا أنصـارك الأنصـــار

وهكذا أيها القارئ الكريم تجد هناك تناقضا واضحـا جـدا ، بين الفكر الإباضي والفكر الشيعي في قضية الحكم .

وعلى ضوء هذه النظرية الموضوعية والتاريخية فإن المدرسة الإباضية قاومت مظاهر الظلم والتعسف والاستبداد فلم ييأسوا .

ومن هنـا نزح الإبـاضيـة من شمال الجزائر الى وارجلان التي كانت تابعة للرستميين وكان ضمن هؤلاء النازحين الأمير يعقوب بن أفلح الذي طلب أن ينصب إمامـا ، فرفض هـذا الأمر ، فقـال قـولتـــه المشهـورة (لايستتر الجمـــل وراء الغنم) فـــأصبحت مثلا .والحق أن مدينـة ورجلان ، قـد عرفت عمرانـا واتسـاعـا ، وهنا أخذ بعض الإباضية في إنشاء مـدينـة جـديـدة أطلق عليهـا سدراتن ، أي سدراتة التي تقع جنوب وارجلان على بعـد 14كلم من الناحية الغربية .

إن هذه المـدينـة قـد أنشئت في القرن الرابع الهجري ، فقـد خطط هذه المدينة الأمير يعقوب بن أفلح .

ولم تمض سنوات طـوال ، على نشـأتهـا حتى ظهرت فيهـا ، حضارة راقية .

وأحسن دليـل على ذلـك الآثـار الحضـاريـة الراقيـة التي تم اكتشافها بفضل الآنسـة الأوروبيـة ـ فـان برغم ـ سنـة 1950 م ، و1951 ، 1952 .

إن هـذه الحقيقـة الآثـاريـة ، بينت أن سـدراتـة قـد عرفت حضـارة متطورة من خلال الأحجـار المنقوشـة بـالصور والرسـوم وقنوات الري ، التي تدل دلالة قاطعة على معرفة هندسة الري .

وعلى أيـة حـال فـإن تلـك الآثـار الراقيـة توجـد في متحف وارجلان والجزائر .

ونزداد إقناعا بهذا الإشعـاع الحضـاري اذا علمنـا أن سـدراتـة هـذه ، قـد أنجبت الفيلسـوف الجـزائري أبـو يعقـوب يـوسف بن ابراهيم الوارجلاني :500 هـ ، 570 هـ .

وهكـذا نجـد أن سـدراتـة قلعـة من قـلاع الحضـارة العربيـة الإسـلاميـة التي تحتـاج الى دراسـة وتحليـل من قبـل أبنـائنـا الجزائريين .

يقول عبـد الرحمن بن محمـد الجيـلالي في كتـابـه تـاريـخ الجزائر العام ص :176 : (سدراتة المعروفة عند البربر بأسـدراتن ذات المدنيـة العظيمـة فـأنشـأوا بهـا قصورهم البـديعـة والمنـازل الرفيعة وأقاموا بها البساتين والمزارع والمنشـآت الضخمـة ونشروا فيها من الرفاهية والحضارة ما أعجب منه العلماء اليوم)

ولمـا هـلَّ القرن السـابـع الهجري ، بـدأت جيـوش المرابطين تغير على هذه المدينة وتم القضاء عليها بزعـامـة علي بن غـانيـة الميروقي الذي خربها وقضى على حضارتهـا . أضف الى هـذا أن العوامل الجغرافية قد جعلت الإباضيـة لايرغبون الاستقرار فيهـا ، لاسيما الجفاف الحـاد الـذي ضرب أوتـاده عـدة سنوات في تلـك المنطقة .

ومن هنا أدرك الإباضية أن الحياة صراع مستمر لابد أن تنتصر الإرادة الطيبة على مظاهر الشر البشري والطبيعي وبعد ذلك نزحوا الى وادي ميزاب الذي عرفوه سابقا .

و ـ الإباضية واستقرارهم بوادي ميزاب

1 ـ أصل الميزابيين :

قبل أن نعالج هذه الفكرة ، يحسن بنا أن نشير الى أن منطقة وادي ميزاب قد عرفت آثارا إنسانية قديمة موغلة في القدم ،وهي تعود الى ما قبل التاريخ وأحسن دليل على ذلك وجود بعض الرسوم في كهوف ومغارات وجبال كجبل دار أويسر ، وأبي مسعود وعبد الدايم ، إن أن هذا الزمان التاريخي يكتنفه الغموض .

إضافة الى أن هناك بعض المدن قد اندثرت ولكن أطلالها لاتزال موجودة ما بين العطف وغرداية مثل ـ أولاوال ـ أوخيرة ـ وأغرم نتلزضيت ـ وموركي ، وباباالسعد القديم ، الخ .

أما بالنسبة الى الإباضية كعقيدة فلم تظهر في المنطقة الا مع بداية القرن الرابع الهجري ، بحيث أن أهل المنطقة كانوا سابقا على مذهب الاعتزال .

مع الإشارة الى أن هؤلاء من القبيلة الزناتية الأمازيغية التي اعتنقت بعد المذهب الإباضي ،الذي هو فكرة وليس جنسا ، ومن الطبيعي جدا أن نجد المؤرخين قديما وحديثا ، يبحثون عن هذه المسألة .

يقول ابن خلدون : (وسكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال ، فيمن يضاف اليهم من شعوب زناتة ، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والأغراس وتتفرق الجماعة بتفرق الرياسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب)[20]

أما الأستاذ أحمد توفيق المدني فيقول :(والميزابيون ليسوا كلهم من قبائل نفوسة ، بل إن أغلبيتهم فقط من نفوسة ، وفيهم الكثير جدا من العرب الأقحاح والقليل من القبائل العربية الأخرى)[21]

وأما الأستاذ محمد على دبوز فيقول : (وأصل الميزابيين من العرب والبربر ، ففي عروقهم دماء العرب والبربر جميعا . ولا صحة لما يدعيه الاستعمار ومقلدوهم من أنهم بربر خلص . فالبربر الخلص اذا أمكن وجودهم في المغرب ففي رؤوس الجبال المنقطعة التي لاتعرف دولة وحضارة . أما الميزابيون فمتحضرون ، وأبناء أكبر دولة إسلامية نشأت في الجزائر ،اختلطوا فيها بالشعوب الإسلامية سيما العرب)[22]

20 ـ المجلد السابع من تاريخ العلامة ابن خلدون ص : 123 ـ 124 ، دار الكتاب اللبناني 1978 .

21 ـ تاريخ الجزائر ص : 184 .

22 ـ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، الجزء الأول : ص : 167 .

لاينكر أحد قط ، هذه الحقيقة التاريخية ونحن بدورنا نشاطر رأي الأستاذين الكريمين في أصالة سكان الميزابيين . مادامت المدرسة الإباضية تقوم أساسا على العقيدة الاسلامية الأصيلة ، ولا تعير أي وزن للجنس والعرق والعنصر .

2 ـ تاريخ إنشاء مدن وادي ميزاب :

قبل أن نعالج هذا الموضوع بالذات تاريخ إنشاء مدن وادي ميزاب ، يحسن بنا أن نشير الى بعض المصادر القديمة التي اعتمدت عليها كطبقات المشايخ للدرجيني ورسالة تاريخ وادي ميزاب للشيخ اطفيش والإباضية في الجزائر للشيخ اعلي امعمر ، إضافة الى بعض أحاديث الشيوخ الذين حاورتهم في طبيعة هذا الموضوع .

وعلى أية حال ، فإن هجرة الإباضية الى وادي ميزاب من سدراتة ووارجلان ووادي أريغ ووادي سوف كانت في أول القرن الخامس الهجري ، ولا نستبعد أن تكون هناك مجموعات أخرى من الإباضية الساكنة في شمال المغرب العربي ، التحقت بوادي ميزاب نظرا الى استقرار المذهب الإباضي في هذا الوادي .

وغني عن القول أن العلامة أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي الذي أسس نظام الحلقة في أريغ كان له الفضل الأول في نشر أصول المذهب الإباضي في ميزاب .

وبديهي أن الإنسان يطرح على نفسه السؤال التالي : من أين جاءت تسمية الشبكة بوادي ميزاب وأسماء مدنه ومتى تأسست تاريخيا تلك المدن ؟

قبل الإجابة المنطقية عن هذه الأسئلة يجمل بنا أن نشير الى أن هناك تفاعلا وتلاقحا بين اللغات دائما منذ القديم الى يومنا هذا .

إن لغة أي مجتمع لاتستقر على دلالاتها الدائمة ، بل لابد أن تمر بالتطور والتغير والتفاعل مع اللغات الأخرى .

إن هذه الحقيقة البديهية نجدها جلية في كل اللغات .

فاللغة الجزائرية العامية الحالة ، هي خليط من عدة كلمات عربية فصيحة وبربرية وفرنسية وتركية ، وأسبانية إلا أن هناك جذورا عريقة بين الألفاظ العربية والأمازيغية .

ولو أخذنا هذه الكلمات التالية : نبش ، شمر ، خزر ، كبَّ ، لوجدنا هذه الكلمات لها دلالاتها الواحدة في العربية والبربرية معا . فالإسلام قد هذَّب اللغة الأمازيغية بدون شك . يقول (الأستاذ العلامة لان... بأن اللغة العربية واللغة البربرية واللغات السامية تنحدر جميعا من أصل واحد)[23]

وانطلاقا من هذه الواقعة التفاعلية بين اللغات ، نجد أن كلمة ميزاب لها جذور تاريخية .

أ ـ أين وردت كلمة مصعب وميزاب تاريخيا :

ومما لاشك فيه أن الكتب التاريخية القديمة ، هي التي تحدد لنا الدلالات اللغوية من حيث مضامينها ، وبالتالي نصدر حكمنا . ومن هنا قمنا بالبحث عن أصل الكلمات مصعب

23 ـ عثمان سعدي : عروبة الجزائر ، عبر التاريخ ص : 40 .

ومصاب وميزاب تاريخيا . لقد وجدنا أن كلمة مصعب أسبق من مصاب وميزاب .

وخير دليل على ذلك ما أورده أبو زكرياء يحي بن أبي بكر المتوفى سنة 471 هـ ، لفظ مصعب في كتابه ، كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، إذ قال : (وكان الشيخ يشَتِّي في أريغ ، ويربِّع في البراري عند بني مصعب وغيرهم وكانوا إذ ذاك واصلية ، فرد بعضهم الى الوهبية)(24)

ثم إن هذه الدلالة مصعب بالذات ، نجدها كذلك في كتاب طبقات المشائخ الجزء الأول ، في الصفحة 183 ، للشيخ أبي العباس أجمد بن سعيدالدرجيني المتوفى سنة 670 هـ ، إذ يقول :(ما بغلنا أن أبا عبد الله كان يخرج للحلقة في أوان الربيع الى بوادي بني مصعب لمآرب .)

أما ابن خلدون فقد ذكر كلمة مصاب عدة مرات بدلا من مصعب في كتابه ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ حيث قال : (وكان لبني بادين منها الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة الى جبل راشد ومصاب)(25)

وغني عن البيان ، أن اللغة لاتثبت على نطق واحد بسبب انتقالها من لغة قوم الى لغة قوم آخر ، كألفاظ اللغة الفرنسية

24 ـ كتاب سير الأئمة وأخبارهم ،ص : 175 . تحقيق اسماعيل العربي .
الشيخ يقصد به ، أبو عبد الله محمد بن بكر الوهبية الإباضية .

25 ـ المجلد السابع : ص :129 .

التي دخلت في اللغة الجزائرية مثل : مارْشِ ، بيرُو ال؛ ...)
وعلى ضوء هذا فإن الأستاذ الكريم علي يحي معمر يقول : (إن كلمة بني مصعب تحرفت الى كلمة مصأب ، بقلب حرف العين الحلقية الى همزة ثم تحرفت الصاد الى ضاد لقرب المخارج ، ثم بعد ذلك أصبح الضاد ينطق زايا لقرب المخارج ولخفتها ، والقارئ الكريم اذا تصفح كتب التاريخ والسير بل وكتب الفقه يجد أن بعضها تستعمل كلمة بني مصعب أو مصاب أو مضاب . ولاتستعمل ميزاب أو مزاب إلا في هذه العصور المتأخرة ،وأنها حين تنسب إليه تقول المصعبي .

وبناء على هذه الحقيقة فإن الشعب الميزابي الكريم هو الشعب الذي تكون من بني مصعب ومن انضم إليهم وانصهر فيهم منذ الفتح الإسلامي حتى الآن)[26]

وإني أرجح هذه الحجة التاريخية القاطعة واللغوية .

وبالرغم من هذا ، فإن هناك من يرى ميزاب نسبة الى جبال الزاب المعروفة ،وأمزاب هي كلمة بربرية زناتية يقصد بها الهضبة ، وتوجد هذه الهضاب في جنوب بسكرة .

والجدير بالذكر أن الذين هاجروا من الزاب حملوا معهم هذه التسمية الى ميزاب ولعل هذا التعليل له جزء من الصحة ، لقد ذكر أبو زكرياء يحي بن أبي بكر كلمة الزاب في كتابه ـ سر الأئمة وأخبارهم ـ لأن هذه المنطقة كانت إباضية ، حيث

26 ـ علي يحي معمر : الإباضية في الجزائر ، ص : 428 .

يقول : (ثم إن أباخرز أرسل الى ناحية الزاب وأريغ ووارجلان أبا محمد يستفزهم ويستحشدهم)[27]

وبعد هذا ، يمكننا أن نشرح إنشاء مدن وادي ميزاب تاريخيا وعلة تسميتها .

ب - إنشاء مدن ميزاب :

أ - العطف : 28

إن مدينة العطف تعد المدينة الأولى التي سكنها الإباضية سنة 402 هـ ، 1012م ، لقد رسم هذه المدينة الشيخ خليفة بن آبغور .

والجدير بالتنويه أن إحدى القبائل البربرية الزناتية التي كانت على مذهب الإعتزال قد سكنت هذه المنطقة . لقد أنشأت ثلاث قرى وهي : أوخيرة ، وأغرم نتلزضيت ، وأغرم نولاوال . إلا أن هذه القرى قد اندرست ولا تزال توجد مقبرة المعتزلة في العطف محصنة . أما بالنسبة الى التسمية فهناك عدة آراء ، العطف هي نسبة الى بعض العائلات البربرية الزناتية التي سكنت هذه المدينة ولايزال هذا الاسم تلقب به بعض العائلات في وادي ميزاب والأوراس بلقب عطفاوي .وقيل إن الاسم الصحيح هو تڤْنِينْتْ وهي كلمة بربرية يقصد بها إناء

27 - انظر : أبا زكرياء يحي بن أبي بكر كتاب سير الأئمة وأخبارهم . ص : 143 تحقيق اساعيل العربي .

28 - وقد تسمى في بعض الحالات العطفاء .

الشرب الـذي يصنع محليـا بسعف النخـل على شكـل دائري لأن المدينة مرسومة على هذا الشكل . ولعل هذه التسميـة صحيحـة ، بحيث يطمئن إليهـا الانسـان وهي أقرب الى المعقـول . وهنـاك من يرى أن التسمية جاءت من منعطف الوادي لأن المدينة تظهر فجأة بعد منعطف الوادي .

2 ـ مدينة بنورة :

لقـد نشئت مـدينـة بنـورة سنـة 437 هـ ، 104 م ، وأول من سكنهـا أولاد أبي اسماعيـل وقيـل إن جمـاعـة بني مطهر التي هاجرت من سدراتة هي التي أسستها .

أما بالنسبة الى التسمية الأصلية فهي آت بنور وهي نسبة الى القبيلة الزناتية التي لاتزال توجد في وادي ميزاب والأوراس .

3 ـ غـرداية :

إن غرداية قـد أنشئت سنـة 447 هـ ، 1053 م ، بعـد العطف وبنورة . وأول من سكنهـا الشيـخ بـابـا والجمـة محمـد بن يحي والشيخ أبو عيسى بن علوان ، والشيخ بابا السعد .

ولقـد انضم إليهم كثير من الإبـاضيين الـذين جـاءوا من وارجلان وأريغ وليبيا وجربة . أما بالنسبة الى التسميـة الأصليـة فهي تغردايت معنـاهـا ـ حـديقـة صغيرة ، تسقى بـواسطـة قنـاة اصطناعية ، ومنها تامغردايت وهي نوع من النخيل الـذي لايزال موجودا في غرداية . وقيل تـاغرديـظ وتـاغروط وهي عبـارة عن جبل صغير يشبه كتف الإنسان في عرضه .

والأصح هو تَغَرْدَايْتْ وهي تصغير لكلمة أغرداي الذي هو الجبل الكبير .

أضف الى هذا فإن هناك قرى في المغرب وتونس وليبيا تحمل هذا الاسم ، وهكذا نلاحظ أن مدينة غرداية أخذت هذه التسمية الأصلية تغردايت لأنها بنيت فوق جبل صغير وقد يكون هذا التعليل صحيحا في نظرنا .

4 ـ مليكة :

لقد أنشئت مليكة تاريخيا على مرحلتين : المرحلة الأولى التي بنيت فيها في مكان يسمى آغرم أوداي وذلك سنة 408 هـ ، 1018 م ، إلا أن هذه المدينة قد انقرضت سنة 1123 م .

وبعد هذا التاريخ قد بنيت ملكية الحالية بيد الجماعة النفوسية الإباضية التي جاءت مهاجرة من ليبيا ، وذلك سنة 750 هـ ، وعلى رأس هذه الجماعة أبو دحمان ويرو بن سليمان .

أما مليكة فاسمها الأصلي هو أتمليشت ، نسبة الى مليكش أحد زعماء بني زناتة وقيل سميت مليكة لأنها تشرف وتعلو على القرى الأربع رفعة

5 ـ بني يسقن :

إن بني يسجن أسست في نهاية القرن الثامن الهجري 1321 م ، حيث اندمجت خمس قرى قديمة على مقربة من

المدينة الحالية وهي : بوكياو ، موركي ، ترشين ، أچنوناي ، تفيلالت .

أما الاسم الأصلي فهو بربري من آت إسجن وقيل نسبة الى أحدى العائلات التي عمرت هذه المدينة بحيث نجد عدة عائلات تحمل هذا اللقب الى يومنا هذا ، في وادي ميزاب والأوراس وتلقب بإسقني . وقد يكون هذا التعليل أقرب الى المعقول ، ينقل الأستاذ علي دبوز عن البكري بأن بني يسقن موجودون في وهران في ذلك الزمان وهم على مذهب الإباضية ثم هاجروا الى ميزاب فلقبت المدينة باسمهم .

وقيل إن القرى التي أوجدت بني يسجن قديما كانت تمثل نصف عدد سكان الإباضية في ميزاب ، اعتمادا على الدلالة اللغوية الميزابية ، أزجن .

6 ـ القرارة :

إن القرارة قد أنشئت سنة 1040 هـ ، 1631 م ، من طرف أولاد باخة الذين هاجروا من غرداية .

مع الإشارة الى أنه كان هناك قريتان عامرتان قبل إنشاء القرارة الحالية . فالأولى كانت تسمى لمبرتخ ، أو أغرم أوداي ، أما الثانية فتسمى الأقصر الأحمر .

إن القرارة قد وفد إليها عدة جماعات من غرداية وبنورة ومليكة والعطف وبني يسجن بعد أن أصبحت تلك المدن يزداد

عدد أفرادها الذين يريدون الهجرة منها ، بحيث لايمكنهم السكن قديما خارج أسوار مدنهم .

أما سبب تسمية القرارة باسمها الحالي : فهذا يعود الى من يرى أن القرارة ذاتها لفظة بربرية أصلها قارة وجمعها تقرار ، وهي جبال لها أشكال بيضوية تآكلت بسبب العوامل الجغرافية : المناخ ، الرياح ، الأمطار مع هشة أحجارها .

وهذه الجبال توجد فعلا في القرارة . بيد أن هناك من يرى أن التسمية لها طابع جغرافي كذلك لأن الماء يستقر في جنوب وشرق المدينة حينما يسيل وادي زقرير ولهذا أطلق على هذا المكان القرارة فأصبح علما لها .

7 ـ بريان : 1060 هـ ، 1690 م :

إن مدينة بريان قد أنشئت في أوائل القرن الحادي عشر الهجري من طرف عشيرة العفافرة التي هاجرت من غرداية ولم تمض عدة سنوات ، حتى خرجت عدة جماعات من قرى ميزاب فاستقرت كذلك في بريان بسبب النمو الديمغرافي . أما سبب تسمية مدينة بريان بهذا الاسم ، فهناك من يرى أن بريان نسبة الى آت إبرقان وإبرقان لفظة بربرية وهي خيمة مصنوعة من الوبر وشعر الماعز .

وقيل إن أهل بريان الأوائل كانت لهم خبرة في نسج هذا النوع الرفيع من الخيم وبالتالي امتهنوا صناعتها وتجارتها . وهناك من يعلل التسمية تعليلا جغرافيا اذ يرى أن موقع المدينة

كان يسمى قديما بريان ، من طرف رعاة غرداية الذين يقصدونه لكثرة مياهه الموجودة في أوديته .

من الملاحظ أن مدن وادي ميزاب ، أصبحت معربة ، فميزاب يعتز باللغة العربية الفصحى ، لأن الإسلام قائم على القرآن الكريم الذي قال الله فيه عز وجل : ﴿**إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾ الزخرف :3

ومن هنا لايجوز أن تكون أي لغة على حساب لغة القرآن الذي أعزنا الله به .

8 - متليلي :

تعد من المدن الموجودة في شبكة ميزاب ، إن هذه المدينة تنتسب الى قبيلة شعانبة الذين يطلق عليهم بالبرازقة الذين سكنوا هذه المدينة في عهد قديم وذلك في القرن العاشر الهجري .

أما عن علة التسمية فهناك من يرى أن لفظة متليلي لفظة بربرية معربة ، يقصد بها الجبل الذي توجد فيه دائرات حلزونية وقيل إنها عربية أصيلة نسبة الى طبيعة وادي متليلي ـ من المتل ـ أي القوى الشديد .

والجدير بالملاحظة أن هناك عدة عائلات من مدينة متليلي لها صلة النسب والقرابة بعائلات إباضية الى يومنا هذا .

9 ـ الضاية بن ضحوة :

إن الضاية بن ضحوة توجد في مجرى وادي ميزاب وأهلها ينسبون الى المذابيح الذين جاءوا من جنوب جبل عمور وقد سكنوا هذه المدينة في حدود 995 هـ .

أما عن علة تسمية هذه المدينة بالضاية بن ضحوة فهذا الاسم يعد تركيبا مزجيا . إن الضاية كلمة بربرية معربة ، يقصد بها المكان الذي يتجمع فيه الماء والذي يصبح صالحا للرعي ، لأن كلمة الضاية لا وجود لها في القاموس العربي .

وأما ابن ضحوة نسبة الى أحد رجال هذه المدينة والضحوة هي الضحى .

وهناك من يرى أن الضاية تحويل لكلمة ضاحية .

وخلاصة الفكرة أن مدن وادي ميزاب كلهات قد طبعت بالروح الإسلامية ، وهذه الحضارة لاتنسب الى هذا أو ذاك ، بل هي عصارة العمل الإسلامي الصالح المثمر المشترك معا .

فلنحذر كل الحذر من يفسر هذه الحضارة الاسلامية تحت تأثير النظريات الاستشراقية ، ومن هنا نقع في حمإ الجاهلية ، ونكون خارجين عن ميزان القرآن الكريم والسنة الشريفة ، يقول الرسول الكريم : «**فلا ترجعن بعدي كفار ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنة نبيه**» (من خطبة الوداع)

ولا بد لنا ، ونحن في هذا المسار التاريخي أن نذكر أن منطقة وادي ميزاب قد وفد إليها منذ القديم عدة قبائل عربية وهي المذابيح والشعانبة ، وبنو مرزوق والعطاطشة وأولاد يحي والمخادمة وأولاد نائل وأولاد الشرفة وأولاد أمغازي .

إن هؤلاء قد وجدوا في وادي ميزاب منذ القديم الاستقرار والأمن ، وكان هناك تعاون وتعاطف بين المتساكنين لأن الإسلام قد وحّد شعورهم ومصيرهم .

ويعجبني هنا قول الأستاذ الكريم محمد علي الدبوز لما قال : (إن المغرب كله من أدناه الى أقصاه وطن واحد عند أجدادنا . فأينما وجد أحدهم الهناء والسعادة انتقل اليه ، فيجد إخوانه وأهله لايستشعر الغربة ، ولايرى بقعة منه ليست وطنه . هذا ما يجب أن نعود اليه)(29)

29 ـ محمد علي دبوز : نهضة الجزائر الحديثة ص : 166 .

بالرغم من هذه الأخوة الإسلامية القديمة ، فقد ظهرت حوادث قذرة في المنطقة بعد الإستقلال ، وهي تتنافى مع مباديء الإسلام والوطن ، فهذه الحوادث هي : حوادث بني يزقن 1975 م – غرداية 1985 م القرارة 1989 م – بريان 1990 م .

إن هذه الحوادث لِا ولَنْ تعود أسبابها إلى وجود المذهب الإباضي والمالكي في ميزاب كما يرى البعض ، ولكن هذه الأسباب تعود إلى غياب الضمير الديني عند بعض النفوس الظالمة والمريضة بداء الحسد وحب الزعامة على حساب القيم الأخلاقية **«وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون – 227 : الشعراء»**

أعوشت بكير

وعلى ضوء هذا التصور الاسلامي الخالص ، يمكننا الآن أن نعالج في الصفحات القادمة أصول المذهب الإباضي .

إن مسائل الاختلاف بين الإباضية والمذاهب الاسلامية الأخرى هي مسائل اجتهادية لأكثر في بعض القضايا العقائدية التي سنشرحها بعد إن شاء الله .

ز ـ أصول العقائد الإباضية :

إن الإنسان مهما كان لايمكنه أن يعيش بعيدا ومنعزلا عن مجتمعه ، وإلا فقد ماهيته الانسانية .

وعلى أية حال ، فإن علماء النفس والاجتماع يرون أن الشخصية الإنسانية تتكون من العناصر التالية :

1 ـ الأنا الجسماني . 2 ـ الأنا النفساني . 3 ـ الأنا الاجتماعي .

إن كثيرا من المفكرين يرون أن شخصية الإنسان هي انعكاس طبيعي لمجتمعه . وهو ينظر من خلال رؤيته ولعل هذه الحقيقة هي الصحيحة ، في نظرنا لاسيما في عالمنا الإسلامي الذي جهل أو تجاهل المدرسة الإباضية وعقائدها التي حرفت كثيرا من طرف الحكام خصوصا قديما ، بسبب السياسة الساعية الى إثبات حكمها المتناقض مع المدرسة الإباضية .

وفضلا عن ذلك فإن الاستعمار وأذنابه شجعوا الاختلافات المذهبية ، وخلقوا مفاهيم خاطئة حولها ، حتى يستطيع أن يحقق مقولته المشهورة : فرق تسد .

وحري بنا أن نبين العقائد الإباضية مع الإشارة الى بعض المصادر فقط .

فالقارئ الكريم عليه أن يحكم بعد ذلك بعقله ، وله حرية كاملة في إصدار حكمه سلبا أو إيجابا من خلال تلك المصادر .(30)

قبل أن نتعرض لأصول العقائد الإباضية لابد أن نشير الى أن المصادر الإباضية ، تعتمد أساسا على القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والإجماع والقياس ، والاستدلال ، إضافة الى الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة .(31)

أما بالنسبة الى عقائدهم الدينية والاجتماعية والسياسية فها هي ذي :

1 ـ **الإيمان :** يرى الإباضية أن الإيمان يتكون من ثلاثة أصول وهي الاعتقاد بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . (إن الإيمان هو جميع ما أمر الله به عباده ، وتعبدهم

---

30 ـ قاموس الشريعة للعلامة خميس ين جميل السعدي .

الدليل والبرهان ، لأبي يعقوب الوارجلاني .

شرح كتاب النيل وشفاء العليل للشيخ أطفيش .

مشارق أنوار العقول للشيخ نور الدين السالمي .

طلعت الشمس للشيخ نور الدين السالمي .

الإباضية بين الفرق الإسلامية للشيخ علي يحي معمر .

31 ـ انظر : الشيخ نور الدين السالمي طلعت الشمس .

بـه من فعل جميع مـا افترض عليهم من الفرائض ، وترك جميـع ما نهاهم عنه من المعاصي فكل ذلك إيمـان بـاللـه ، ودين لـه ، وإسلام وكله إيمـان) (أبو عمـار عبـد الكـافي ، الموجز ، ج 2 ، ص : 92)

2 ـ **التوحيد :** أن يشهـد الإنسـان البـالغ أن لاإلـه إلا اللـه وحده ، لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن ما جاء بـه حق ومن أنكر أحد هـذه الأقسـام عـد مشركـا . (إن سـأل سـائل فقال :ما أصل الدين ؟ فقل : الدين هو التوحيد ، لقوله تعالى : ﴿**إن الدين عند الله الاسلام**﴾ (آل عمران : 19)

والإسلام يتم بالقول والعمل ، أما القول فشهادة أن لاإلـه إلا اللـه وحـده لاشريـك لـه ولا نـد لـه ، ولا ضـد لــه ، ولا قرين ولاشبيه لـه ، ولا مثيل لـه وأن محمـدا عبـده ورسولـه ، وأن مـا جاء به حق من عند ربه) وأمـا العمل فـالإتيـان بجميع الفرائض) (من مقـدمــة التـوحيــد للعـلامــة أبي حفص عمرو بن جميـع ، ص :32 ـ 38)

3 ـ **الصفات الالهية :**

إن الإباضيـة يرون أن صفـات اللـه عزوجل هي عين ذاتـه ، وبالتالي ليست زائدة ولا محـدثـة ولا حـالـة فيهـا أو تقوم بهـا . ومن هنـا فـإن الإبـاضيـة يرفضون أي نـوع من أنـواع الفصـل أو التعدد بين صفات الله وذاته .

صفـــاتـــه لـــذاتـــه هي ذاتـــه
لا غيرهـــا دلت بـــذا آيـــاتـــه

فلو أن صفاته تعالى غيره للزم عليه محذوران أحدهما تعـدد القدمـاء والثـاني احتيـاجـه تعـالى للغير وكلاهمـا بـاطل ، وأمـا السمعي فهـو قـولـــه تعـــالى : ﴿**ليس كمثلـــه شيء**﴾(11 : الشورى) فلو كانت صفاته تعالى غيره لكان كغيره في المشاركة في القدم والاحتيـاج الى الغير) (الشيخ نور الـدين السالمي ، مشارق أنوار العقول : ص : 179)

4 ـ نفي رؤية الله عز وجل :

إن الإباضية تجزم بامتنـاع رؤيـة اللـه في الـدنيـا والآخرة . اعتمادا على الأدلة الشرعيـة والعقليـة ، ولو أمكن رؤيـة اللـه عز وجل لكان جسما متميزا موجودا في مكان ما ، أمام حواسنا .

أمـا الآيـات القرآنيـة فيجب تـأويلهـا مجـازيـا ، لأن اللغـة العربيـة لاتخلو ولن تخلو من المجـاز اللغوي كقولنـا : ابن رشـد بحر العلوم وأسد الاسلام ، ويقصـد بهـذا عقلا أن ابن رشـد عـالم كبير وشجاع عظيم ، وإذا رفضنا هذا المجـاز العقلي فـإن لغتنـا ستفقد دلالتها العقلية والبلاغية والجمالية والفكرية .

فالرؤيـة قـد تكون بغير البصر ، يقول اللـه عز وجل : ﴿**ألم تر كيف مـد اللـه الظـل ولـو شـاء لجعلـه سـاكنـا**﴾

(45 : الفرقان) وقوله : ﴿**أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة**﴾ (77 : يس) وإنما يعني بهذا كله وأشباهه العلم واليقين ولا يريد بهذا الرؤية الحسية البصرية .

(قال حدثنا أفلح بن محمد عن أبي معمر السعدي عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿**وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة**﴾ (القيامة : 22) قال : تنضر وجوههم وهو الإشراق . ﴿**الى ربها ناظرة**﴾ قال تنتظر متى يأذن لهم ربهم في دخول الجنة ولا يعني الرؤية بالإبصار لأن الأبصار لاتدركه كما قال : ﴿**لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾ (103 : الأنعام) (نقلا عن كتاب الجامع الصحيح ج 3 ، ص : 29)

5 ـ القدر وعلاقته بحرية الإنسان :

مما لا جدال فيه أن حرية الإنسان ، قد خلقت إشكالية فلسفية في الفكر الإسلامي . فالإباضية قد وقفوا موقفا وسطا بين النزعة القدرية والنزعة الجبرية .

وعلى أية حال فالمدرسة الإباضية ترى أن القدرة مرتبطة بالمقدور أي الكسب .

إن إرادة الإنسان مقيدة بحرية اختيارنا . فالإنسان ليس مجبرا على أفعاله ولا خالقا لتلك القدرة .

فقد ذهب أهل الاستقامة ـ الإباضية ـ والأشعرية الى التوسط بين الحالتين فقالوا إن القدرة من خلق الله عز وجل وهي

مرتبطة بالكسب ، فنثاب ونعاقب على القدرة الفعلية التي قمنا بها ، بإرادتنا الحرة ، يقول الله : ﴿**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**﴾ (البقرة : 282) فالآية صريحة في اثبات الكسب والاكتساب لها وهي مبطلة لمذهب الجبرية ولقوله تعالى : ﴿**وأنه هو أضحك وأبكى**﴾ (43 : النجم) فالآية صريحة على أن الله تعالى هو خالق الضحك والبكاء فيهم وهو فعل لهم وهذا مبطل لمذهب المعتزلة) (الشيخ نور الدين أبو محمد بن حميد السالمي ، مشارق أنوار العقول : ص : 312)

6 ـ العدل والوعد والوعيد :

إن الإباضية يرون أن الله عادل كل العدل في وعده ـ الثواب ـ ووعيده العقاب ، وصادق في وعده ووعيده .

وعلى ضوء هذا فإن الإباضية يذهبون الى أن الكافرين والمنافقين وفجار المسلمين الذين ارتكبوا الكبائر ثم لم يتوبوا توبة نصوحا ، فإن مصيرهم يكون العذاب الأبدي ، لقوله تعالى : ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها**﴾ (النساء : 93)

وأما المؤمنون فهم مخلدون في الجنة : (ندين بأن الله صادق في وعده ووعيده ، وندين بتخليد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وندين بأن الجنة والنار دائمتان لاتفنيان .

وندين بأن ثوابه لأوليائه في الآخرة وعقابه لأعدائه في الآخرة لايشبه ثوابه وعقابه في الدار الدنيا) (الشيخ عامر الشماخي : من كتاب العقيدة المباركة ، ص : 44)

7 ـ الشفاعة :

إن الشفاعة مرتبطة في المذاهب الإسلامية بعفو الله عز وجل عن عصاة المسلمين ، الذين ارتكبوا كبائر بحيث لايخلدون في النار .

أما الإباضية فهم يرون أن شفاعة محمد ﷺ لن تكون لمن مات وهو مصر على الكبائر ، وإنما تكون للمسلمين عامة للتخفيف عنهم يوم الحساب ، ثم التعجيل بهم لدخول الجنة ، وتزاد كذلك بعض الحسنات للمسلمين الذين ماتوا على الإسلام والتوبة الخالصة .

(عن جابر بن زيد عن النبيء ﷺ قال : «**ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا بعمل صالح وبرحمة الله وشفاعتي**» (الجامع الصحيح) . وعن جابر بن زيد عن النبيء ﷺ قال : «**ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمتي**» (الجامع الصحيح) . وعن جابر بن زيد قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ (الشعراء : 219) جعل رسول الله ﷺ يتفخذ أفخاذ قريش فخذا فخذا حتى أتى الى بني عبد المطلب فقال :(يا بني عبد المطلب إن الله أمرني أنذركم فإني لأغني عنكم من الله شيئا ألا إن أوليائي منكم

المتقون ألا لاعرفن ماجاء الناس غدا بالدين فجئتم بالدنيا تحملونها على رقابكم يافاطمة بنت محمد وياصفية عمة محمد اشتريا أنفسكما من الله فإني لاأغني عنكما من الله شيئا» (الجامع الصحيح :مسند الامام الربيع بن حبيب ، ج 4 ص : 24)

8 ـ خلق القرآن الكريم :

(إن الإباضية يرون أن القرآن الكريم مخلوق ، محدث إلا ما قام الدليل على قدم معناه فقط ، كلفظ الجلالة والرحمن الرحيم)

(إنا وجدنا الله عز وجل وصف القرآن بما وصف به غيره من سائر الخلق ، فقال عز وجل : **﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾** (الزخرف : 3) وقال في غير القرآن من الخلق : **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾** وقال في القرآن : **﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون﴾** (الأنبياء : 2) (أبو عمار عبد الكافي : ج 2 ،ص :135)

9 ـ لامنزلة بين المنزلتين :

ويقصد بهذا لامنزلة بين منزلة الإيمان ومنزلة الكفر . أما النفاق فهو منزلة بين الإيمان والشرك . وأما المسلم الذي ضيع الفرائض الدينية أو ارتكب كبائر الإثم كالقتل والزنا وشهادة الزور وأكل الربا الخ . فإنهم يطلقون عليه الموحد العاصي وأنه

كافر كفر نعمة لقول الله عز وجل : ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**﴾ (آل عمران : 97)

وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **(إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»** رواه مسلم .

ومهما كان الأمر فإن هؤلاء المسلمين العصاة لا يخرجونهم عن ملة الإسلام وأحكامه ، ويحرم أن تستحل دماؤهم وأموالهم ، بل يصلى معهم وعلى أمواتهم ويحج معهم الخ .

إن الاختلاف بين الإباضية والمذاهب الإسلامية الأخرى في هذه المسألة اختلاف لغوي لا أكثر اذ يطلق على المسلم العاصي دلالة الفاسق ،الفاجر ، المنافق ، الكافر كفر نعمة .

إن هذه المسألة المشروحة جعلت حدا فاصلا بين الإباضية والخوارج الذين حكموا على عصاة المسلمين بالشرك .

«يجب الفرز بين كبائر الشرك وكبائر النفاق ، وأشرك من لم يقرر ، ومن شك في شركه لا من شك في الشاك الا ان قامت عليه الحجة ، وهو أن يعلم أن تكذيب الله إشراك . والكذب عليه نفاق ، ودخل في التكذيب القول بخلاف ما قال مواجهة بلا تأويل والقول بخلافه مع الجهل بنزوله . أو أن يعلم أن الكبائر قسمان شرك ونفاق قلت هو الصحيح نمتاز به عن

الأزارقة والنجدية والصفرية) (العلامة محمد بن يوسف اطفيش .. الذهب الخالص ، ص : 25و26)

10 - الولاية والبراءة :

الولاية هي الحب ومناصرة الاخوة الإسلامية الصادقة التي يظهرها المسلم لأَخيه المسلم في الله لا غير .

يقول الله عز وجل : ﴿**واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم**﴾ (محمد : 19)

أما البراءة فهي هجرة من جاهر بالبغي والعدوان أو ارتكب كبائر جهرا ثم أصر عليها ، ولم يتب ، وهي تنطبق على الكافرين جملة وعصاة المسلمين الذين خرجوا عن الاسلام .

وأما إذا تابوا توبة خالصة ، فإن حقوقهم تعاد اليهم .

فالإباضية عقائديا اعتمدت على هذا الركن الإسلامي الذي استطاعت به أن تعالج الآفات الاجتماعية الخطيرة لاسيما في السنوات الماضية .

والجدير بالذكر أن المذاهب الإسلامية الأخرى لاتقر بولاية الأشخاص أو براءتهم . ولكنها تحصرها بولاية المسلمين كافة ولا تنطبق على عصاة المسلمين مهما كان جرمهم ، ثم إنّ البراءة لاتنطبق إلا على الذين يدينون بدين الإسلام . (فليس بين الأمة الإسلامية اختلاف في ولاية الجملة ، وإنما الاختلاف بينهم في ولاية الأشخاص ، فإن ولاية المسلمين بعضهم بعضا كونهم معهم

على شريعتهم وقد قال الله تعالى : ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾ (التوبة : 71)

فالولاية والبراءة تجبان معا على المكلف في حال البلوغ فهما سواء لاعذر لمن جهلها ، فكما تجب الولاية لأولياء الله كذلك تجب البراءة من أعداء الله بأي معصية كانت مع الإصرار عليها .

أما القرآن فقول الله تعالى : ﴿**لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾ (28 : آل عمران﴾

فنهى الله تعالى عن ولاية الكفار فأنفذ فيها الوعيد فقال : ﴿**لا تتولوا قوما غضب الله عليهم**﴾ (13) : الممتحنة) وقال : ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ (51 : المائدة) فمن يتول مشركا كان مشركا ومن تول منافقا كان منافقا صاحب كبيرة . (الإمام أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي : قواعد الإسلام ، ج : 1 ، ص : 46 ، 68)

11 - الإمامة :

مما لاجدال فيه أن مشكلة السلطة أي الخلافة ، تعد أول مشكلة خطيرة ظهرت في الإسلام بعد وفاة الرسول الكريم ، اذ مزقت وحدة المسلمين الى يومنا هذا ، بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في يوم الجمعة 18 ذي الحجة سنة 35 هـ .

إن الإباضية يرون أنه لايجوز بأية حال من الأحوال أن تبقى الأمة الإسلامية بدون إمام أو سلطان ، مهما كانت الظروف السياسية والاجتماعية وإلا لاَ تقام الحدود الإسلامية وبالتالي لايجوز الخروج على الإمام العادل مطلقا كان إباضيا أو غير إباضي .

أما إذا كان الإمام ظالما فجاز الخروج على سلطته بشرط أن تكون الظروف ناجحة حتى لاتكون هنا فتنة وانشقاق في الأمة الإسلامية .

فالإباضية يرون أن الخلافة لايمكن أن تكون وراثية لأن المسلمين سواسية ما داموا قد خلقوا من نفس واحدة ، لقول الله عز وجل : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**﴾ (النساء : 1)

وانطلاقا من هذا فإن الإباضية يرون أن القياس الوحيد لهذا المنصب هو الكفاءة المطلقة والتقوى ، اعتمادا على قول الله عز وجل : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر أو أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (13 : الحجرات)

قال ابن عباس : قال النبيء ﷺ : **إن أمر عليك عبد حبشي مجدوع الأنف فاسمعوا وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله**﴾ (مسند الإمام الربيع بن حبيب ، الجامع الصحيح)

والإباضية يرون أن الإمامة لها أربعة مسالك وهي إمامة الكتمان ، والدفاع ، والشراة ، والظهور .

(عقد الإمامة فريضة بفرض الله الأمر والنهي . والقيام بالعدل وأخذ الحقوق من مواضعها ، ووضعها في مواضعها ومجاهدة العدو والدليل عليها من الكتاب والسنة والاجماع .

لايحل الخروج على الإمام العادل .

والإباضية عندما يتكلمون على الأئمة الجورة ، وإنما يقصدون أئمة الجور الذين انحرفوا عن حكم الله سواء كانوا من أتباع المذهب الإباضي أو من أتباع غيره ، فالجور ليس له مذهب .

الإمام يختار عن طريق الشورى وباتفاق أغلبية أهل الحل والعقد .

لايجوز أن تبقى الأمة الإسلامية دون إمام أو سلطان) (علي يحي معمر : الإباضية ص : 54 ، 55)

هذه هي الأصول الإباضية الواضحة التي اعتمدنا فيها على بعض النصوص المباشرة لتعزيز فكرتنا القائمة على الاستدلال الواضح .

ولعل القارئ الكريم قد أخذ صورة صادقة عن المدرسة الإباضية عقائديا واجتماعيا وسياسيا

ولعلي لا أخطئ اذا قلت : إن هذه المبادئ تمثل الرصيد الأصيل الثابت في الإسلام والتي لاتزال بحاجة الى دراسة أعمق وأوسع .

أضف الى هذا أن هناك دعامة حيوية في حياة وادي ميزاب ، حيث تركناها حتى الفصل الأخير ، نظرا لارتباطها الوثيق كما مضى ، ونقصد النظام الاجتماعي المتمثل في نظام العزابة ، الذي مضى على تأسيسه عشرة قرون كاملة ، ولذا سنلقي نظرة معمقة على ماضيه وحاضره .

وعلى ضوء هذا يمكننا الآن أن نبين هذا النظام الاجتماعي الإسلامي في هذا الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

نظام العزابة وأثره الاجتماعي في وادي ميزاب

تمهيد : لابد لمن يبحث في نظام العزابة وأثره الاجتماعي في البيئة الميزابية العامة من التعرض للأقلام العربية والأجنبية الذي درست هذه الظاهرة الاجتماعية الإسلامية الأصيلة .

ومن الأمانة العلمية أن نقول : إن هناك عدة أقلام إسلامية قديمة ومعاصرة قد سبقتنا في إلقاء بعض الأضواء الكاشفة على هذا النظام ، وبالتالي يمكن أن نشير الى بعض هذه الأقلام المعاصرة التي اعتمدت على التراث القديم .

1 ـ الأستاذ احمد توفيق المدني في كتابه تاريخ الجزائر .

2 ـ الأستاذ على يحي معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ .

3 ـ الأستاذ محمد علي دبوز نهضة الجزائر

4 ـ الأستاذ ابراهيم محمد طلاي في كتابه وادي ميزاب بلد كفاح

5 ـ الأستاذ محمد عيسى النوري في كتابه نبذة من حياة الميزابيين .

6 ـ نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة للدكتور فرحات الجعبيري .

7 ـ النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال افريقيا للدكتور عوض خليفات محمد الأردني .

8 ـ أضواء ميزاب لكلود بافار .

9 ـ مدخل الى الدراسات الإباضية وعلم توحيدها للدكتور بيار كوبيرلي .

10 ـ إباضية شمال إفريقيا للأستاذ لويسكي تادز.

هذه هي بعض الكتب التي بحثت في طبيعة نظام العزابة ، فضلا عن عدة دوريات عربية وأجنبية . وأيا كان الأمر فإن هذه المصادر اعتمدت على المصادر الإباضية القديمة وهي كتب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء يحي بن أبي بكر . وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ، وكتاب الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات للبرادي أبي القاسم محمد بن إبراهيم ، فضلا عن بعض المخطوطات التالية :

1 ـ سير العزابة لأبي الربيع سليمان المزاتي .

2 ـ رسالة العزابة لأبي عمار عبد الكافي .

3 ـ رسالة تاريخ ميزاب وعوائد أهله للشيخ أبي اليقظان .

هذه لمحة مختصرة عن أهم المصادر التي تناولت نظام العزابة وقوانينه ، وهذا مما يدل دلالة قاطعة على فعالية هذا النظام الإسلامي الذي لايزال بحاجة الى بحث وبيان آفاقه التربوية والاجتماعية في عالمنا الإسلامي الذي يشكو من وطأة الثقافة الغربية والشرقية على السواء .

ولا يمكننا أن نزيل جذور هذه الوطأة الثقافية والاجتماعية الا بالرجوع الى حضارتنا الإسلامية الأصيلة .

وإن نظام العزابة ما هو إلا مظهر تربوي من مظاهر حضارتنا الاسلامية العريقة . وانطلاقا من هذا المسار الحضاري يحسن بنا أن نوضح أسسه العامة التاريخية والتربوية والاجتماعية .

1 ـ لماذا لجأ الإباضية الى نظام العزابة ؟

اذا تأمل الانسان العادي منطقة وادي ميزاب يدرك كل الإدراك أن الطابع الإسلامي ، هو الذي طبع هذه المنطقة حضارة وثقافة وسلوكا واجتماعا متمثلا في نظام العزابة الذي أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي الذي اتخذ جنوب الشرق من المغرب العربي منبرا لدعوته لاسيما وادي ميزاب ، لأنه قد أدرك أن إمامة الظهور لايمكن تحقيقها في هذه الحال ،لأن الإباضية لاقوة لهم في هذا الأمر السياسي .

ومن هنا ، فقد لجأ الإباضية الى نظام العزابة حفاظا على وجودهم وعقائدهم المتناقضة أشد التناقض مع المذاهب الشيعية المتطرفة الحاكمة آنذاك ، التي تجعل حكمها قائما على الإمام المعصوم الذي رفع الى درجة الألوهية والذي سيكون شافعا لأنصاره يوم القيامة .

ولنتأمل معا ما قاله الشاعر ابن هاني في مدح المعز لدين الله الفاطمي حيث قال :

ما شئت لاما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تجدي شفاعته غدا حقا وتخمد أن تراه النار

وعلى ضوء هذه الحقيقة التاريخية المرة ، فكر الإباضية في نظام العزابة للحفاظ على أصول مذهبهم ولولا هذا لاندثروا ولعل من المفيد جدا أن نستدل برأي الدكتور محمد الطالبي التونسي ، إذ قال : (إن المذهب الإباضي صمد صمودا غريبا ، ناشئا عن قوة الإيمان الذي يغمر قلوب أصحابه ، ويجعلهم يثبتون للمحن ، وينسجمون مع الوضع في دون تنكر لمثلهم العليا ، وفي دون تضحية بالمقدسات ، فلقد اهتدى الإباضيون بفضل إخلاصهم لمبادئهم لإيجاد الحلول الملائمة للوضع في كل الملابسات التي مروا بها ، وبالرغم عما نسجتهم من رياح متعاكسة لم تستطع أن تعفي أثرهم الى اليوم .

ثم يضيف قائلا : ومن جملة هذه الحلول ، الطريقة التي مكنت أصحاب المذهب الإباضي من المحافظة على كيانهم ، نظام العزابة الذي بقي قائما بجربة الى عهد ليس بالبعيد ، والذي بقي العمل به الى اليوم في وادي ميزاب ، فهذا النظام الجدير بالعناية وبالبحث لا لأنه يفيد أيضا الباحث الاجتماعي المعاصر ،كما أنه يمثل مظهرا من مظاهر حضارتنا وتقاليدنا .

بل قد يجد علماء الاجتماع عامة شكلا اجتماعيا برهن على نجاعته وفاعليته طوال قرون عديدة ، ويمكن دراسته مقارنة على أوسع بساط) 32

أيها الأخ الكريم ... إن هذا الاستشهاد التاريخي ، وهذه الظاهرة الاجتماعية المؤثرة في حضارتنا الإسلامية ، تجعلك تطرح على نفسك هذا السؤال المنطقي ، من أسس هذا النظام الإجتماعي ، في أي مكان وزمان ، فكيف تم ذلك ؟

إن الجواب عن هذا السؤال الهام سنوضحه الآن :

2 ـ العلامة أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي ودوره في تأسيس نظام العزابة :

إذا تصفح الباحث المصادر الإباضية القديمة والحديثة يجد أنها تخبر بأن أول مؤسس لحلقة العزابة هو العلامة أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي ، لاسيما كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء يحي بن أبي بكر المتوفى سنة 471 هـ ، وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني المتوفى سنة 670 هـ ، إذ يقول رحمه الله : (فمن ذلك العزابة واحد منهم عزابي ، وأول ما استعمل هذا اللقب في أيام أبي عبد الله محمد بن بكر رضي الله عنه ، لما أسس الحلقة ورتب قوانينها .

32 ـ انظر مقدمة الأستاذ محمد الطالبي في كتاب نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة لفرحات الجعبري ص : 7 ـ 8 .

الحلقــة ، اسم لجمــاعــة تشتمــل على الشيــخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويبصرهم في الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم)[33]

والجدير بالذكر أن هذا النظام كان أول مرة على هيئة حلقة العلم ثم ترقى الى نظام اجتماعي يهتم بـالشؤون الاجتمـاعيـة اذ قنن قوانينه العلامة أبو عمار عبد الكافي المتوفى سنة 570 هـ .

وعلى ضوء هذا ، يمكننا أن نبين حيـاة هـذا المعلم الصـالح من حيث مولده ودراسته وآثاره الفكرية ووفاته .

أ ـ نسبه ومولده وطفولته :[34]

أما من حيث نسبه فهو أبو عبـد اللـه محمـد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي الذي ولد بمـدينـة فرسطـا التي تقع في جبل نفوسة ولاية نالوت الليبية .

وأما الزمان الـذي ولـد فيـه بـالضبـط ، فـإن تلـك المصـادر القديمة لاتحدده ، وبنـاء على ذلـك ، نستطيع أن نحـدد مولـده تقريبا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

---

33 ـ انظر نفس المصدر تحقيق اسماعيل العربي ص : 173 ـ 182 .

الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني : طبقات المشائخ بـالمغرب ج : 1 ص : 3 ـ 4 .

34 ـ انظر : 1 ـ كتاب الطبقات للدرجيني ج 2 ، ص : 377 .

2 ـ النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية لعوض خليفات ص : 24 ـ 25 .

3 ـ نظام العزابة في جربة لفرحات الجعبيري ص : 31 .

وأما الأستاذ الكريم الشيخ بكلي رحمه الله ، فيرى أن مولده كان 345 هـ . والى هذا الرأي يذهب الأستاذ عوض محمد خليفات في كتابه القيم النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا .

وكذلك نجد المصادر القديمة لاتتحدث عن أي شيء عن طفولته في مدينة فرسطا إلا أنها نجد أنها تقول إنه انتقل الى جزيرة جربة .

ب ـ نشاطه العلمي ودوره في تأسيس نظام العزابة :

إن أبا عبد الله محمد بن بكر قد درس على الشيخ أبي زكرياء فصيل في الجامع الكبير بجربة وكذلك على الشيخ أبي نوح الذي قال فيه : (إن كنت أفهم شيئا ، فإن هذا الفتى هو الذي يحيي دين الله)

لقد درس الأصول العقائدية والفقهية على الشيخ أبي نوح سعيد بن زنغيل ، ولما توفي أستاذه غادرها الى القيروان طالبا المزيد من المعرفة ، وبعدها انتقل الى مدينة قصطيلية فأخذ العلم عن الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء لاسيما العلوم النقلية ، وهكذا نلاحظ أيها القارئ الكريم أن حب الاطلاع والتعمق في المعارف النقلية والعقلية ، كان من أهم سمات هذا

35 ـ انظر المصادر السابقة .

2 ـ الإباضية في الجزائر لعلي يحي معمر ط :1 ص :176 ، 192 .

3 ـ كتاب سير الأئمة وأخبارهم ص : 173 .

الطالب الذي سعى الى تفقيه نفسه وتنمية مواهبه ، وتهذيب سلوكه ، ليلا ونهارا .

وبعد هذه الفترة الدراسية ، فإن هناك حدثا هاما ، قد حدث في حياته حيث التقى مع نخبة الطلبة الجربيين بتوزر في الجريد ، وكان ذلك سنة 408 هـ . ثم طالبوا منه ، أن يؤسس لهم نظاما تربويا واجتماعيا ، لحماية المذهب الإباضي من الذوبان وأن يجعل له ثوابت واضحة للعلماء والطلبة وعامة الناس ، إلا أن هذا الطلب قد رفضه أول مرة ، إلا أن الطلبة قد ألحوا عليه عدة مرات ، فقبل هذا الطلب إلا أنه اشترط عليهم ، أن يتركوه وشأنه مدة زمانية هي أربعة أشهر كاملة ، لايسألوه عن مسألة ما ليتفرغ الى نظام اجتماعي حتى يتماشى مع حالتهم الاجتماعية والدينية والثقافية ، ولما قضت أربعة أشهر قدم الى أنصاره الذين حملوه إياه تلك المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية نظام الحلقة كاملا ، وكان ذلك في مسجد المنية بقصطيليا ، أي في الجريد التونسي حاليا ، سنة 408 هـ . لقد سمي هذا النظام أول مرة بالسيرة المسورية البكرية نسبة الى العالم أبي زكرياء فصيل بن أبي مَسُور الذي له الفضل في التحريض على تأسيس هذا النظام الذي وضع أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر إذ نسبت اليه البكرية .

وعلى أية حال ، فلقد نظم الحلقة أول مرة في غار تينيسلي سنة 409 هـ ، مع أنصاره بأجلو ، في أريغ .

ج ـ جهاده الإسلامي وآراؤه التربوية :

إن أبا عبد الله محمد بن بكر أمسى هو وأنصاره ينتقلون من مكان الى مكان آخر في الجريد التونسي وأريغ الجزائري ،يدعون الى هذا النظام الجديد ، حيث اشتهر أبو عبد الله محمد بن بكر بسيدي محمد السائح حتى قال عنه عبد الله ابن الأمير العالم الإباضي (عجبا لهذا الشيخ وأصحابه أمثالهم كمثل الحواريين لعيسى عليه السلام)

وعلى ضوء هذا المنحى العملي ، يجدر بنا أن نشير الى أن أبا عبد الله محمد بن بكر ، قد زار أريغ ومكث عند القبيلة البربرية المغراوية مبينا لها طريق الإسلام الصحيح ، ومنهجه العملي ، وفي سنة 409 هـ ،اتخذ في أجلو ـ بَلْدَتْ أعْمَرْ ـ قرب تيڨُورَتْ حاليا غارا مدرسة تميزت بالتربية الإسلامية الصارمة التي تشبه التربية العسكرية الى حد كبير .

والهدف من هذا ، هو تعويد أنصاره وطلابه على تحمل المشاق والتغلب على العقبات المادية والفكرية ، كما جاء في كتاب طبقات المشائخ للدرجيني ، يكابِدون مؤونة العيش لأنفسهم ، إلا أن أبا عبد الله ، قد غادر أريغ الى وارجلان ، لما وجد أن القبيلة المغراوية ، لم تجعل حدا فاصلا ، لقطاع الطرق الذين أحدثوا فسادا في الأرض فأزعجوا الناس قلقا هناك .

ومن هنا ... قصد فران التي تعد قرية من قرى وارجلان ، فاتصل مع أنصاره ، فلزموا طريقته ، ومنهجه القائم على الأمر

بـالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أن بني مَغْرَاوة قـد وجـدوا فراغا كبيرا في المجال الديني والعلمي ، لما تركهم .

وهناك اتصلوا معه وطالبوا منه أن يعود إلى ديارهم ، إلا أن الشيخ أبا عبد الله طلب منهم : الإعتراف بذنبهم بـأنهم لم يجعلوا حدا فاصلا ، لعصابة قطـاع الطرق ، ثم أن يشمروا عن سـاعـدهم في الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ، ولمـا قبلـوا هـذه الشروط ، رفع عنهم براءته فرجع إليهم .

د ـ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي في وادي ميزاب :

إن أول خطوة في العمل هو العمل الصالح بالإسلام سلوكـا ، كمـا شرع أبو عبـد اللـه محمـد بن بكر في دعـوتـه الإصـلاحيـة القائمة على الواقعة الفعلية .

إطلاقا من هـذا المنهج السليم ، فكر الشيخ أبو عبـد اللـه أن يـزيـد لفكرتـه اتسـاعـا واستقرارا ، وهنـا فكر أن ينشر فلسفتـه التربـويـة الإسـلاميـة في بني مصعب أي وادي ميـزاب ، فكيف حصل ذلك أيها القارئ الكريم ؟

تقول المصادر الإباضية القديمة ، إن وادي ميزاب قد سكنتـه القبيلة البربرية الزناتية التي كانت على مذهب الواصلية ، الذي أسسه واصل بن عطاء الذي يعد أحد زعماء المعتزلـة وأكبر دليل على ذلك وجود مقبرة تنسب الى المعتزلة في مدينة العطف .

ومهما كان الأمر ، فإن المصادر الإباضية القديمة تقول : إن أبا عبد الله محمد بن بكر قد كانت له معرفة جيدة ببني مصعب أي بوادي ميزاب ، لأن من عادته كان يزور وادي ميزاب هو وطلابه في بداية الربيع طالبا الإستجمام والراحة النفسية . يقول الشيخ أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله : (ما بلغنا أن أبا عبد الله كان يخرج للحلقة في أوان الربيع الى بوادي بني مصعب لمآرب منها أنه كان يطلب بذلك راحة خاطره وخواطر التلاميذ ، واستصلاحها ، وتدبير قوى أجسادهم واستصلاحها ، فإنه علم ما في بلاد ريغ من رداءة الهواء وقلة طيب الماء ، وأيضا فإن بني مصعب كانوا واصلية فعمت عليهم بركته ، فرجعوا الى دين الحق ، والطريقة المرضية)(36)

ومن هذا المنطلق التاريخي ، فإننا نقول : إن أبا عبد الله محمد بن بكر يعد رائدا ، وكشافا لمنطقة وادي ميزاب ، حيث سكن أول مرة في العطف ، وله مقام معروف الى يومنا هذا وشرع يدرس ويعلم طلابه الشريعة الإسلامية ونبغ من بين هؤلاء ، أبو الربيع سليمان بن يخلف وأبو الخطاب عبد السلام والشيخ ابراهيم بن مناد العطفاوي والشيخ باباسعد الغرداوي .

أما الأسباب التي دفعت الإباضية الى وادي ميزاب المسلم وانتقالهم من أريغ والجريد ووارجلان فهي تعود أساسا الى ما يلي :

---

36 ـ كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ج 1 ص : 183 .

أ ـ إن الجفاف قد ضرب أوتاده في الجنوب الشرقي من المغرب العربي .

ب ـ العامل الأمني في اختيار منطقة صعبة المسالك والتحكم في أمنها ، إزاء الخصم ، ولعل هذا العامل قد دفع أهل الحل والعقد الى اختيار وادي ميزاب بزعامة أبي عبد الله محمد ابن بكر .

وغني عن القول أن أبا عبد الله محمد بن بكر لم يكن رجل قول ، بل كان رجل عمل وجهاد .

إن حياته قامت على الجهاد المستميت في الدفاع عن القيم الأخلاقية القرآنية عمليا . وأفضل دليل على ذلك أسفاره المتكررة الداعية الى الإسلام الأصيل في ليبيا وتونس والجزائر والسودان .

ونحن لا نستغرب إذا رأينا الناس يلقبونه بسيدي محمد السائح ، وهذا أكبر دليل على تفانيه الكلي في خدمة الإسلام عملا ، لاقولا . وبعد هذا العمل المضني ، الشاق المثمر الهادف الى خدمة الاسلام انتقل الى رحمة الله سنة 440 هـ . في مدينة أجلو أي مدينة بَلْدَتْ أعمر، وهي تقع جنوب تقرت وقبره مشهور وهو يزار الى حد الساعة من قبل المسلمين لاسيما أولاد سيدي السائح الذين ينتسبون اليه .

وبعد هذه النظرات الخاطفةفي حق هذا الإمام العظيم نتساءل معا أيها القارئ الكريم ما هي عناصر القوة في شخصية هذا المجاهد العظيم .

لاجرم أن العظيم هو الذي يحدث تطورات إجابية في مجتمع ما .

ومن هنا نقول : إن عظمة أبي عبد الله محمد بن بكر قد تحدى السلطة السياسية الجائرة التي كانت تطارد وتحارب الفكر الإباضي أينما ظهر .

وفوق هذا ، فإن منهجه العام ، اعتمد أساسا على الفلسفة التربوية المبنية على الثوابت الإسلامية ، القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ومن هنا نجد كل المدارس التربوية قديما وحديثا غربية وشرقية تهتم بهذا الجانب الخطير في حياة الأفراد والأمم .

وهكذا يقول الفيلسوف التربوي الأمريكي المعاصر - جون ديوي : (التربية هي الطريقة الأساسية للتقدم والإصلاح الاجتماعي كل إصلاح لايعتمد الا على قوة القانون ، فهو إصلاح عابر لاقيمة له)

بيد أن العلامة أبا عبد الله محمد بن بكر ، قد سبق هؤلاء الغربيين والشرقيين لأن آفاق التربية قائمة عنده على أساس المعطيات المادية والروحية والمنافسة النبيلة . وهذه الخصائص التربوية هي انعكاس طبيعي لمنهجه القرآني الذي طبقه على

طلابه ، وهكذا يظهر لنا أن نظامه التربوي يشبـه الى حـد كبير المـدارس الـداخليـة العصريـة في العـالم بـأجمعـه ، حيث تجعل الطالب قوي الشخصية جسمانيا ونفسانيا واجتماعيا .

يقول رحمه الله : (فأوقات الدراسة قد مضى ذكرهـا ، ووقت الراحـة والتصرف هو آخر النهـار ، يتصرف الى المـواضـع التي لا ينكر التصرف فيها كَمَوَاضع الميـاه ، ومواضع الأشجـار وأمثـالهـا من الأماكن التي تنفرج فيها النفوس وتنفتح فيها الصدور ، فـإن في ذلك إجماعا للخواطر وجلاء للنواظر ، فلا بأس في ذلك مـا لم تكن هذه الأماكن معروفة بأن تستقر فيهـا مصـادف الشبهـات والإكثـار من التصرف في الطرقـات والأسـواق يكره وإن دعت ضرورة فهي طريق نافذة)

أما بالنسبة لآرائه التربويـة فهي تعتمـد أسـاسـا على الوقـائع الحسية الملموسة .

لقد سئل عن حلال خالطه الحرام أيؤكل ذلك المال فقـال : (إنه حرام) (ذكر أن سائلا منهم سأله مـا تقول في حلال خـالطـه الحرام أيؤكل منه ؟ قال ما ترى في جحر دخله جربوع ودخلته حية كلاهما بمرأى منك ؟ أتـدخل فيـه يـدك طلبـا للجربوع ؟ قال لا أفعل مخافة الحية . قال : وكذلك مـا سـألت عنـه ، ولـه معهم أنواع من هذه الأجوبة)(37)

---

37 ـ كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ج 1 ، ص : 181 ـ 182 .

ومن خلال هذه النظرة التربوية الإسلامية الأصيلة ، ينبغي لنا أن ننظر الى نظام العزابة الذي أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر معرفة وسلوكا ، وقَنَّنَه أبو عمار عبد الكافي الإباضي نهائيا .

3 ـ نظام العزابة

أ ـ العزابة لغة واصطلاحا :

الدلالة اللغوية : لقد جاء في لسان العرب (عزب رجل عزب ومعزابة : لا أهل له ، وعزبت الإبل : أبعدت في المرعى لاتروح وأعزبها صاحبها ، وعزب إبله وأعزبها بيتها في المرعى ولم يرحها)

وهكذا نجد كلمة العزابة لغة يقصد بها الغربة والبعد وعزبه أبعده .

الدلالة الإصطلاحية : يقصد بها خدمة الإسلام والمصلحة العامة ، والبعد النسبي عن زينة الحياة لاسيما التفاني وراء المادة ثم الالتزام الكلي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لقد سئل أبو عمار عبد الكافي عن دلالة العزابة ، فقال : (أصل العزابة استقاها من العزبة ، والعزلة والغربة والتصوف والتهجد على رؤوس الجبال ، وحاصل ذلك يرجع الى سير أهل الحلقة وما يجب عليهم من سير بعضهم على بعض) (رسالة العزابة

---

38 ـ لقد اعتمدت على المصادر السابقة إضافة الى رسالة أبي عمار عبد الكافي المخطوطة ويطلق عليها كذلك السيرة .

أما أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله فيقول : (فمن ذلك العزابة واحده عزابي ، هذه اللفظة استعملتها لقبا لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير ، وحافظ عليها وعمل بها ، فإن حسن جميع هذه الصفات سمي عزابيا ، وإن حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به ، وإن حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم)(39)

وأما الأستاذ الشيخ على يحي أمعمر رحمه الله فيقول : (العزابة هيئة محدودة العدد ، تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا . وهذه الهيئة تقوم بالاشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي)(40)

وهكذا أيها القارئ الكريم فإن رجل العزابة هو رجل عمل وعلم لدنيا وأخرى ، جاء لخدمة الاسلام ويبعد نفسه عن مفاتن الدنيا المادية وأن يكون هدفه الأول هو خدمة الأمة الإسلامية سلوكا وغرس الأخلاق القرآنية .

ب ـ ما هي شروط عضوية العزابة ؟

هناك عدة شروط ضرورية ، يجب أن تتوفر في الشخص حتى ينضم الى حلقة العزابة .

1 ـ أن يكون هذا الشخص بالغا مسلما .

2 ـ أن يكون ذا أخلاق إسلامية أصالة وسلوكا .

---

39 ـ كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ج 1 ، ص : 3و4 .

40 ـ الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الأولى ص : 95 .

3 ـ أن يكون متزوجا بالضرورة ، وأن يكون رب عائلة بالاختيار .

4 ـ أن يكون حافظا لكتاب الله عز وجل .

5 ـ أن يمر بمراحل الدراسة ، المرحلة الابتدائية ، المحضرة ، المرحلة الثانوية ، التخرج (من دار قدماء التلاميذ)

6 ـ أن يكون نظيف القلب واللباس ومحافظا على الزي الرسمي للعزابة .

7 ـ أن يكون مضحيا بالنفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الحق وشريعة الإسلام . وهذا لايتأتى إلا من خلال استمراره في التعلم والتعليم وشغفه بالعلم .

8 ـ لايكثر من دخول الأسواق ويبعد نفسه عن الأماكن المكروهة والمشبوهة .

9 ـ أن يكون رزقه أساسه الفلاحة بالدرجة الأولى والقصد من هذا أن يكون متوسط الحال .

يقول أبو عمار عبد الكافي لايدخل أي شخص حلقة العزابة الا اذا توفرت فيه هذه الخصائص الأخلاقية :

أ ـ أن يكون أديبا كيسا .

ب ـ أن يكون مشمرا في طلب العلم .

ج ـ لايكثر من دخول الأسواق .

د ـ أن يغسل جسده بماء ويغسل قلبه بماءوسدر .(رسالة العزابة صفحة : 2)

ج ـ **أعضاء هيئة العزابة ووظائفهم :** يتراوح عدد أعضاء حلقة العزابة بين 12 عضوا و14 عضوا .

1 ـ **شيخ العزابة :** يكون أكثرهم علما وذكاء وأقدرهم على حل المشاكل الاجتماعية وهو الذي يتولى الارشاد والتوجيه ويبلغ كذلك المقررات التي اتخذتها هيئة العزابة الى عامة الناس في المجال الاجتماعي .

2 ـ **المؤذن :** إنه يقوم بالآذان وضبط أوقات الصلوات الخمس والصوم والإفطار والأعياد الدينية .

3 ـ **الإمام :** وهو الذي يؤم بالمسلمين في الصلوات الخمس ويلقي عليهم خطبة الجمعة وفي أغلب الحالات يكون هذا الإمام نائبا لشيخ العزابة .

4 ـ **وكيلان لأوقاف المسجد :** إنهما مسؤولان على أوقات المسجد والمقابر . فهما يسعيان الى جلب المنفعة وصيانة أوقاف المسجد وبالتالي دفع كل ما يضر بمصالح المسجد .

5 ـ **المعلمون :** يكون عددهم بين ثلاثة وخمسة أعضاء وهم مسؤولون عن نظام المسجد وعن شؤون المحاضر القرآنية نظاما وتربية ودراسة .

6 ـ **المسؤولون الإجتماعيون :**هم الأشخاص الذين يقومون بغسل الموتى ومراقبة وصاياهم وتقييم تركاتهم على حسب أحكام الإسلام . وقد يزيد عددهم على خمسة أعضاء .

والجدير بالذكر أن هولاء المجاهدين لايأخذون أي أجرة عن عملهم مادام أن هذا الأمر في اعتقادهم فرض يوجبه عليهم الواجب الديني والاجتماعي والأخلاقي والإنساني . يقول محمد علي الدبوز : (إن مجلس العزابة لو كان أعضاؤه يعملون بأجرة لأصبح محل أطماع الطامعين ، فيقدم إليه غير الأكفاء ، وتصبح وظيفته محل المنافسة من ذوي الأطماع المادية فيدخل فيه من لايليق ، ومن يضر المجتمع ولاينفعه)(41)

أما بالنسبة الى مقر العزابة فإنه يكون داخل المسجد حيث تجري فيه اجتماعاتهم الرسمية وهذا المقر لايجوز لعامة الناس الدخول فيه إلا في حالات خاصة مستعجلة .

د ـ الهيئات الاجتماعية المساعدة لنظام العزابة :

إن وادي ميزاب يعطي كل طاقاته للفرد والمجتمع من خلال المنظور الاسلامي حتى لا يكون هنا تنافر بين ذاتية الفرد والمجتمع . أما الفرد فهو مرتبط بأسرته التي تعد اللبنة الجوهرية في الاسلام .

1 ـ الأسرة :

إن الأسرة في وادي ميزاب تتميز أساسا بتماسك أفرادها والتعاون والتضحية على أساس الشريعة الإسلامية ولهذا نلاحظ أن الآباء يبذلون أقصى حد في تربية أبنائهم دينيا وأخلاقيا واجتماعيا .

---

41 ـ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ج 1 ص : 195 .

أما بالنسبة للأبناء فهم بدورهم يقومون برعاية آبائهم نفسيا وصحيا واقتصاديا اللهم الا في بعض الحالات الشاذة الموجودة .

ومن هذا المنطلق الإسلامي لانجد ولن نجد إن شاء الله من يدعو الى ملاجئ الشيوخ إن هذه الدعوة مخربة وهي مظهر من مظاهر الحضارة الغربية المدمرة ألم يقل الله عز وجل :

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريماً﴾(23 : الإسراء)

2 ـ العشيرة :

إن العشيرة تحتل المرتبة الثانية بعد الأسرة في الجزائر والعالم العربي والإسلامي على أساس الدين الإسلامي .

يقول الله عز وجل : **﴿فلا تدع مع الله إلها آخر ، فتكون من المعذبين ، وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**

(الشعراء : 213 ، 214)

وعلى أية حال فإن مدن ميزاب تتكون من العشائر ، وهذه العشيرة قد تكون رابطة الجد الأول . وقد تكون الرابطة صداقة قديمة انضمت بعض العائلات الى تلك العشيرة فانصهرت فيها .

إن الأخوة الإسلامية والمحبة في الله ، والأخلاق المثالية هي الرابطة الأساسية بين العشائر ، أما العرق والجنس والدم فهي دعوة جاهلية يحاربها القرآن .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن ننظر الى العشائر في وادي ميزاب بمنظار إسلامي حيث نجد تلك العشائر ، مثل الجمعيات الخيرية العصرية وهي تهتم بأبناء اليتامى وتعالج المشاكل الاجتماعية على حسب إمكانيتها الذاتية وتقدم يد المساعدة لإقامة الأعراس أفرادا وجماعات .

لقد لخص الشيخ أبو اليقظان هذه الوظيفة فيما يلي : (وقد علق الله بهذا النظام (العشائر) حقوقا لليتامى والأرامل ، والسفهاء والمجانين والغياب ، وحفظ به نظام الأسر والعائلات بحفظ الأنساب وإلزام النفقات ، وإيصال حقوق الميراث لأصحابها ، وخفف به ثقل الدية في الخطإ على القاتل بتوزيعها على أفراد العشيرة) (المصدر السابق ص : 233)

3 ـ جمعية الشباب (إمصوردان) :

وتسمى محليا : إمصوردان ، إن هذه الهيئة الاجتماعية ينخرط فيها شباب ميزاب المسلم .

إلا أن هناك شروطا ضرورية لمن يريد أن ينضم الى هذه الهيئة .

1 ـ أن يكون الشباب ذا أخلاق وسيرة حسنة .

2 ـ أن يكون أمينا ، بالغا ، عاقلا ، متزوجا .

3 ـ أن يكون ذا صحة جيدة .

إن وظيفة هذه الجمعية تتمثل فيما يلي :

1 ـ خدمة المصلحة العامة لاسيما تقديم الخدمات في المساجد والمقابر وفي حالة الكوارث الطبيعية كالجفاف والجراد والفيضان وهي تشبه الحماية المدنية وذلك بإغاثة المنكوبين في حالة نشوب حريق أو سقوط النخيل او الديار ، بسبب الرياح القوية أو نزول الأمطار ...الخ .

2 ـ إنها العين الساهرة على الأمن والآداب العامة من خلال الحراسة التطوعية بدون مقابل مادي .

وهكذانجد أن هذه المنظمة تساعد الأمن الحكومي وتجعل الناس عمليا آمنين على عائلاتهم وممتلكاتهم بفضل إخلاصهم إنه التنظيم الإسلامي الذي سنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

4 ـ المجلس الديني للنساء :

إن المجلس الديني للنساء يسمى محليا بتمسيردين .

إن هذا المجلس يعد تكميلا لمجلس العزابة ، وهذا المجلس يهتم بمعالجة القضايا الدينية والاجتماعية والأخلاقية المتعلقة بحياة العنصر النسوي في وادي ميزاب .

ويضم في عضويته نساء مسلمات مصلحات عاملات خبيرات بالمسائل النسوية ومشاكلها الاجتماعية والعائلية كالزواج والأعراس والطلاق الخ .

وظيفة هذا المجلس :

1 ـ نشر الفضيلة الأخلاقية من خلال حلقات الدرس والوعظ والتوجيه الإسلامي الخالص

2 ـ محاربة الآفات الاجتماعية والبدع الفاسدة المتناقضة مع الشريعة الاسلامية .

3 ـ الإشراف على حفلات الأعراس والمهور حتى لايكون هناك إسراف أو أغاني ماجنة ومن تعد على ذلك يحكم عليه بالبراءة .

4 ـ الإشراف على غسل الأموات من النساء والأولاد الصغار .

والجدير بالتنويه أن لهذه الهيئة النسوية مؤتمرا عاما في كل سنة يسمى بمؤتمر (لا إله إلا الله) يعقد في إحدى مدن ميزاب والهدف من هذا الاجتماع الإسلامي هو توعية النساء بالأخلاق الإسلامية والدعوة العامة الى التمسك بالتربية الإسلامية عملا لا قولا . وغرس في النشء الصغير والاولاد القيم الأخلاقية القرآنية من خلال سلوك الأسرة لاسيما الأم التي تتحمل تلك المسؤولية الأخلاقية ، فالمرأة المسلمة في ميزاب لها حقوقها وواجباتها ضمن الشريعة الإسلامية . يقول الأستاذ عوض محمد خليفات الأردني : (إن للمرأة الإباضية الميزابية أن تشترط على زوجها في عقد الزواج ثلاثة شروط إذا أخل بواحدة منها تصبح عصمتها بيدها وتستطيع أن تطلق نفسها إن أرادت وهذه الشروط هي :

1 ـ أن لايتزوج عليها .

2 ـ أن لايرتكب إحدى الكبائر الأربع :

الزنا ، الميسر ، وقتل النفس المحرمة .

3 ـ أن لا يغيب عنها أكثر من عامين متتاليين)[42]

وبعد هذا ننتقل الى مجلس عمي سعيد إذ يعد أعلى سلطة روحية في ميزاب .

5 ـ مجلس عمي سعيد :

إن مجلس عمي سعيد مجلس ديني واجتماعي وهو يضم بعض عزابة مدن وادي ميزاب السبع ، إضافة الى عزابة وارجلان . وهكذا نجد أن كل مدينة لها مجلسها الديني الذي يستقل بأموره داخليا .

أما مجلس عمي سعيد ، فهو يتألف من كبار وعلماء عزابة مدن وادي ميزاب ، فكل مدينة يمثلها في أغلب الحالات ثلاثة أعضاء ، تتوفر فيهم الشروط الدينية والأخلاقية والكفاءة العلمية والأهلية .

أما رئيس هذا المجلس ، فهو ينتخب انتخابا حرا ، ويشترط فيه أن يكون أكثرهم علما وكفاءة وذا شخصية قوية . وهذا المجلس يجتمع في أغلب الحالات مرة واحدة في كل ثلاثة أشهر ، وقد يعقد جلسة طارئة إذا دعت الظروف الى ذلك . إن مقر عقد جلسات هذا المجلس الديني ، كان يعقد قديما في ملكية ، بمسجد الشيخ أبي عبد الرحمن الكرثي الذي يعد أحد أعلام الفكر الإباضي في القرن السادس الهجري ، وبعد ذلك صار

42 ـ النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال افريقيا . ص : 52 .

يعقد جلساته في روضة الشيخ أبي مهدي عيسى بن اسماعيل الذي عاش في القرن العاشر الهجري .

وعلى أية حال ، فإن هذا المجلس الديني الأعلى صار يسمى بمجلس عمي سعيد لأن جلساته صارت تعقد منذ القديم في المسجد الملازم لقبر هذا العالم وهو سعيد بن علي بن بوحميدة بن عبد الرزاق بن سعيد الخيري الجربي المتوفى سنة 898 هـ .

إن هذا العالم الجليل قد وفد الى غرداية مع عالمين سنة 854 هـ ، بطلب من عزابة وادي ميزاب لما استفحل واشتد أمر الجهل في القرن التاسع الهجري ، واعتمادا على ما مر بنا يمكن أن نشير الى الوظائف الأساسية التي يقوم بها مجلس عمي سعيد بدون عوض مادي .

وهذه المهام تنحصر فيما يلي :

1 ـ النظر وإصدار بعض الفتاوى إزاء بعض قضايا ذلك العصر .

2 ـ إشراف على الأوقاف الإباضية ، داخل مدن الجزائر والحجاز ودعمها ماديا وأدبيا .

والجدير بالذكر أن مجلس عمي سعيد كانت له سلطة فعلية في المجال الإجتماعي والقضائي والاقتصادي في القديم .

إلا أن الاستعمار الفرنسي قد نزع منه تلك الوظائف الحيوية ، ولم يبق له إلا المجال الديني وبعض القضايا

الاجتماعية المحلية ، ولا يزال هذا المجلس يقوم بدور التوعية والارشاد الديني والمحافظة على الأوقاف الإباضية .

هـ ـ الآثار العامة لنظام العزابة في وادي ميزاب تاريخيا وحضاريا :

1 ـ في الميدان الديني والاجتماعي :

إذا أمعن الإنسان النظر في العالم الإسلامي ودرس تاريخه من القرن الثامن الهجري الى القرن الثالث عشر الهجري ، يدرك كل الإدارك ، أن هذا العالم قد أصيب بالفقر والجهل ، والانحطاط الفكري والخلقي ، والاضطراب الاجتماعي وبالتالي ذبلت الحضارة الاسلامية .

هذه الآفة العامة ، لم تسلم منها الجزائر ووادي ميزاب .

ومن هنا نجد أن وادي ميزاب قد ظهرت فيه تلك الأمراض الاجتماعية العامة : الجهل ، الظلم ، الفساد الخلقي ، البدع الضالة ، الزيغ عن العقيدة الإسلامية الصحيحة .

يقول الأستاذ الكريم الشيخ بكلي عبد الرحمن بن عمر رحمه الله : (اشتهرت في أيامه ـ أي العصر الذي عاش فيه الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني (1130 هـ ـ 1223 هـ) ـ عادات فاسدة ، كعدم احتجاب المرأة من أحمائها وكفَشْوِ الوشم بين الرجال والنساء وتعاطي السعوط (الشمة ، جهارا) وكعدم توريث المرأة النصيب المفروض ، الى غيرها فكان صوته بالنكير يزداد ارتفاعا كلما ازدادوا إصرارا واستكبارا ، وهكذا تظل المعركة

حامية الوطيس بين الفريقين أو ينجلي غبارها عن انتصار الحق على الباطل)[43]

وهكذا نجد شيوخ العزابة كالشيخ سعيد الجربي والشيخ أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي (1120 هـ ، 1223 هـ) والشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني (1130 هـ ، 1223 هـ) والعلامة الكبير الشيخ الحاج امحمد بن يوسف أطفيش (1236 هـ ، 1332 هـ) والشيخ أبي اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى (1888 هـ ، 1973 م) والشيخ ابراهيم بن عمر بيوض (1899 ـ 1981م)

إن هؤلاء رحمهم الله هم الذين طهروا المجتمع المسلم في ميزاب وغيره من البدع الضارة والأخلاق الفاسدة وغرسوا في ميزاب والجزائر والمغرب العربي ، بذور الإيمان الأصيل وأرجعوا عامة الشعب الى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، حيث بينوا خطر الوثنية القديمة والمعاصرة على سلوك المسلم . لقد بينوا للجمهور المسلم ، أن العقيدة الدينية الصحيحة قد حددت تحديدا واضحا في الكتاب والسنة ، فليست في سلوك بعض المسلمين العصاة الذين حرفوا الإسلام بانتسابهم اليه من خلال ازدواجهم بين القول والعمل .

---

43 ـ انظر :مقدمة كتاب النيل وشفاء العليل ص : 14 ـ 15 .

وهكذا فإن هؤلاء العزابة المجاهدين ، قد أخذوا المسجد عبادة ومدرسة وجامعة في آن واحد لتهذيب سلوك المسلمين بمنظار القرآن الكريم والسنة الشريفة لمعالجة قضايا عصرهم .

ولا بأس أن نستدل برأي الشيخ ابراهيم بيوض - رحمه الله - في قضية حرية المرأة اذ يقول : (والعجيب ممن يزعم أن حرية المرأة هي فسقها وتبرجها وتسكعها وكونها متاعا يتلهى به العابثون السفهاء من الناس ، ولا يعلم أن الحرية الحقيقية والكرامة الإنسانية هي ما منحها إياها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فهي لاتتزوج الا بمن ترغب وترضى ، ولا تحرم من حظها المعلوم من الميراث ، ولا تمنع من التصرف في مالها **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾** (228 : البقرة)

وهذه الدرجة تقضيها طبيعة فضل الرجال على النساء وهي لازمة لصلاح المجتمع واستقرار نظام البيوت والأسر السعيدة)(44)

وبعد هذا يمكننا أن نستعرض جانبا آخر في حياة وادي ميزاب وهو الجانب الثقافي .

- في الميدان الثقافي والعلمي :

إن الحقيقة التي لاجدال فيها ، أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد العاقل الذي يعي الثقافة تصورا وسلوكا ، من خلال

---

44 - في رحاب القرآن : ص : 33 .

معـارفـه التي اكتسبهـا ، مـاديـة وفكريـة . بحيث تتجلى هــذه الدلالة في الحضـارة البشريـة . وغني عن القول أن الإسلام قـدم للبشرية حضارة مثالية ، واقعية قـد بينهـا القرآن الكريم والسنـة المطهرة .

وتأسيسـا على هـذا المفهوم الإسلامي ، نرى أن وادي ميزاب منذ القديم ، قد انطلق من الواقعة القرآنية الثابتة وعلومهـا ، لأَن القرآن الكريم هـو الأصـل الثـابت لأَحكـام شريعـة الإسـلام ، فـالقرآن الكريم لا يمكن فهمـه وإدراك أسرار علومـه وبلاغـة إلا باللغة العربية الفصحى الخالية من اللحن والتحريف .

إن اللـه عز وجل ، قـد أنـزل القرآن على محمـد ﷺ عربيـا **﴿وكذلك أنزلناه قرآنـا عربيـا وصرفنـا فيـه من الوعيـد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾** (113 : طه)

هكذا نلمس أثر اللغة العربية الفصحى جليـة في المؤسسـات الثقافيـة ، لاسيمـا في المسـاجـد التي جسمت هـذه الحقيقـة في كتاتيب الأطفال الصغار ودور التلاميذ الهادفـة الى حفـظ القرآن الكريم كلـه وتعلم اللغـة العربيـة وعلومهـا ، وهـذا بفضلَ رجـال العزابة والعلم .

يقـول الأستـــاذ محمـــد علي دبــوز : (إن ميــزاب يعتني بحفظ القرآن كل الاعتناء ، إنه أساس العربيـة والـدين ، ويعتني بتعلم العربيـة اعتنـاءكـامـلا . فمن لايعرف العربيـة الفصحى من

العلماء لايحظى في ميزاب بأي احترام . إنه لايوجد في ميزاب اليوم أمي في الرجال ، لايقرأ العربية ويكتبها . ولاتجد فيها من يحتقر العربية ولايعتد بها ولايغار عليها . وذلك بفضل الكتاتيب ودار التلاميذ والمدارس العربية العصرية التي أنشأها ميزاب ، وبفضل هذا النظام الديني الذي هزم الاستعمار فلم يستطع أن يغرس في الجنوب احتقار العربية والدين)[45]

وفي هذا المنظور يقول مصطفى نبيل (والدليل الحاسم على نجاح حلقة العزابة هو إلغاء الأمية في ميزاب ، ففي الجوامع يتعلم أبناء القرية مبادئ الكتابة واللغة العربية ويحفظون القرآن الكريم ، وهي صورة فريدة ، فالنجاح في القضاء على الأمية حلم غال ،لم تنجح في الوصول إليه العديد من أصحاب النظريات الحديثة)[46]

وعلى ضوء هذه الحقيقة الواضحة نلاحظ أثر القرآن الكريم وأهدافه في أدباء المنطقة الذين أثروا في الأدب الجزائري المعاصر والأدب الإسلامي كالشاعر الثائر رمضان حمود (1096 ـ 1929 م) ومفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية (1908 ـ 1977)

45 ـ نهضة الجزائر ص : 125 ، ج : 1 .

46 ـ العربي : العدد 286 سبتمبر 1982 . ص : 115 .

ورائـــد الصحـــافـــة الجــزائريـــة الشيــخ أبي اليقظـــان (1888 ـ 1973) حيث أصـدر ثمـاني صحف تصـارع الاستعمـار والبدع الضالة ، والتبشير والتجنيس والأخلاق الفاسدة .

انطـلاقـا من هـذا المنحى الفكري ، يمكننـا أن نقـول ونحن واثقـون كـل الثقـة ، إن ميـزاب يعـد لبنـة قـويـة ، وثـابتـة في حضارتنا الاسلامية وهذا يعود الى أعلامـه الأصلاء ، الـذي شمروا عن ساعدهم في تأصيل القيم الدينية والعلميـة والأخلاقيـة داخل المجتمع الجزائري .

ومن هنـا يجمل بنـا أن نستشهـد برأي الأستـاذ أنور الجنـدي حيث يقـول : (وفي الجـزائر ظهرت الحركـة السلفيـة متـأخرة قليلا ، غير أن ممن شاع ذكرهم في هذه الفترة محمد بن يوسف أطفيش من وادي ميزاب ، والـذي عـد من مجـددي القرن الرابع عشر ، وتجاوزت مؤلفاته ثلثمائة مصنف)(47)

ثم يقـول في فضـل آخر (ابراهيم بيـوض من زعمـاء النهضـة التربـويـة والإصـلاحيـة في جنـوب الجـزائر في منطقـة وادي ميـزاب ، سبقـه على الطريـق في هـذه المنطقـة عبـد العـزيـز الثميني والحـاج محمـد بن يـوسف أطفيش وابراهيم الأبريكي ، والحـاج عمر بن يحي . وهـو من خلفـاء الرعيـل الأول من المصلحين والسلفيين ، ومفاهيمه تقوم على أساس العودة بالإسلام

---

47 ـ الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ص : 28 .

الى منابعه الأولى ونشر اللغة العربية وحمايتها وله حلقات في تفسير القرآن الكريم ينحو فيها منحى الشيخ محمد عبده .

وقد قام بدوره السياسي الى جانب دوره التربوي في حماية الجنوب من الإنفصال ، وقاوم مؤامرة الاستعمار الفرنسي في فصل الصحراء .

لقد اشترك الشيخان بيوض وأبو اليقظان في جمعية العلماء ، وكانت حركة النهضة في الجنوب استكمالا لها ، وامتدادا في مقاومة الحملة على اللغة العربية والإسلام ومناهضة مؤامرات التغريب والفرنسة والإذابة والإدماج(48)

3 ـ في الميدان النضالي والسياسي :

لكي نعطي القارئ الكريم فكرة صحيحة وعميقة عن رجال العزابة وتاريخهم ، لابد أن نستعرض الجانب النضالي والسياسي حتى تكتمل الصورة الحقيقية التي رسمناها لهم في إطارها الشامل .

تدل الوثائق التاريخية أن الإستعمار الفرنسي لما احتل الجزائر سنة 1830 م ، ذهب من ميزاب عدة آلاف من المجاهدين للدفاع عن الدولة الجزائرية الإسلامية التي كانت لها هيبة في العالم المسيحي .

وفي هذا المنظور التاريخي نجد الطبيب الألماني سيمون بفايفر الذي قال في كتابه مذكرات أو لمحة تاريخية عن

48 ـ المصدر السابق ص : 144 .

الجزائر تعريب أبي العيد دود صفحة 80 ما يلي : (وصل مع أمين الميزابيين في الجزائر العاصمة حوالي أربعة آلاف وبذلك أصبح الجيش الجزائري بإضافة حرس الآغا أفندي وسكان الجزائر الذين واصلوا الى المعسكر دفعات كبيرة يضم خمسين ألف رجل على الأقل)

أما الدكتور أبو القاسم سعد الله فيقول في كتابه - تاريخ الجزائر الحديث - ص : 34 (وجمع أهالي مزاب حوالي أربعة آلاف محارب)

فأما الأستاذ أحمد توفيق المدني ، فقد أظهر دور الإباضية ودورهم في هذا الجهاد حيث يقول في كتابه محمد عثمان باشا صفحة 175 ما يلي : (عندما استصرخ رجال الوطن ضد الحملة الفرنسية شارك الميزابيون مشاركة فعالة في أعمال البطولة بنواحي سيدي فرج واسطاويلي والطريق الممتد الى العاصمة الجزائرية)

ومما يذكر كذلك التاريخ أن جميع الثورات التي ثارت ضد الاستعمار الفرنسي نجد فيها أبناء ميزاب المسلم الذين شاركوا بالنفس والنفيس)[49]

وعلى أية حال فإن فرنسا لما احتلت الأغواط وجد ميزاب نفسه أمام الاحتلال الفرنسي لامحالة . لأن جدار الدفاع الذي شارك فيه الميزابيون فعلا في شمال الجزائر وغربها وشرقها قد

49 - انظر حمو محمد عيسى نبذة من حياة الميزابيين ج 1 .

انهار . وبالتالي لجأ ميزاب الى المناورة السياسية لعلها تحفظ وتضمن له نظامه الاجتماعي والداخلي ـ مالا يدرك كله لايترك جله ـ ومن هذا المنطلق السياسي بعث ميزاب وفدا للتفاوض مع الرائد دَبيرِي في الأغواط والذي يعمل تحت قيادة الحاكم الفرنسي الماريشال رالدون في الجزائر وبعد المفاوضة تَم الاتفاق على ما يلي :

1 ـ لايجوز للسلطات الفرنسية أن تتدخل في الشؤون الداخلية لميزاب دينيا واجتماعيا .

2 ـ كل عام يدفع ميزاب ضريبة قيمتها خمسة وأربعون ألف فرنك فرنسي آنذاك مقابل هذه الهدنة الشكلية إلا أن الإمام محمد بن يوسف أطفيش رحمه الله وقف ضد هذه المعاهدة ثم أعلن براءته من هذا الوفد الذي تفاوض مع أهل الشرك والكفر كما يروي ذلك يقول رحمه الله : (إن تشييع ثمانين جنازة في اليوم من بني يزقن أحب إلي من أن يطرق سمعي أن فرنسا وضعت قدمها على حجر واحد من تضفت) (وهو مكان معروف في بني يزقن)(50)

والجدير بالذكر أن هذه الاتفاقية قد أبرمت في 29 أبريل 1853 م

إلا أن فرنسا لم تحترم هذه الاتفاقية بل احتلت ميزاب في ديسمبر 1882 م ، بدعوى أن ميزاب صار ملجأ للثوار ولم تمض

50 ـ حمو محمد عيسى النوري : نبذة من حياة الميزابيين ص : 320 .

عدة سنوات حتى شرعت فرنسا تتدخل في شؤونه الداخلية ، لاسيما تعقيم نشاط مجلس عمي سعيد .

إلاّ أن رجال الدين المخلصين لم يعدلوا إطلاقا عن مفهوم الدين الأصيل لأنه يمثل : الحياة ، الآخرة ، الجهاد ، الفرد ، الدولة الإقتصاد ، العلم ، العمل الصالح .

وبفضل رجال الدين المخلصين ، شارك ميزاب بكل فئاته الاجتماعية الاسلامية في الثورات لاسيما ثورة نفمبر المباركة التي قام بها المجاهدون باسم الاسلام .

لقد بينت جريدة الشعب العدد 7327 ، 18 ماي 1987 ، هذه الحقيقة التاريخية في حديث الإثنين قالت : (فأي مجاهد أو فدائي في أي ناحية ، يتقدم الى دكان ميزابي مستظهرا بكلمة سر خاصة يتلقى على الفور كل المساعدات الممكنة المطلوبة)

وفي هذا المنطلق النضالي يقول ابن خدة بن يوسف ، عضو لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير الوطني (1956 ـ 1957) والرئيس السابق للحكومة المؤقتة للجمهورية (1961 ـ 1962)

(كان التجار الميزابيون من أخلص المساعدين الذين عملت معهم كانوا يتمتعون بجدية وطنية فائقة ، فوجودهم داخل الحي الأوروبي قد سهل كثيرا مهمة لجنة التنسيق والتنفيذ ، خاصة عندما كان الأوروبيون في سنة 1956 لم يكتشفوا بعد نشاط إخواننا الميزابيين وانتمائهم الى جبهة التحرير الوطني ،كانت

محلاتهم مراكز للبريد ومستودعات للوثائق والمناشر والجرائد والأسلحة والذخائر ومراكز للطباعة السرية وملتقيات للمناضلين المطاردين من طرف الشرطة الاستعمارية ، نقلوا في سياراتهم الخاصة الأسلحة والذخائر ومختلف الوثائق رغم الخطرالذي يتعرضون له ، فهم صورة ناصعة للمناضل الجزائر الوفي) نقلا عن الوثيقة المؤرخة في 9 رجب 1407 هـ ، في حق شهادة الشيخ بيوض ابراهيم بن عمر رحمه الله . ولعل من المفيد أن أشير كذلك الى أن الأقلام الإسلامية من ميزاب قد حاربت كل المحاربة الاستعمار التبشير التجنيد التجنيس الاندماج ، ولذا فقد دعت الى عظمة الاسلام وأخلاقه الايمان الأخلاق الاتحاد الوحدة الوطنية الخ ... يقول الشيخ أبو اليقظان رحمه الله (أيها الجزائري الماجد ، اعلم أن القطر الجزائري مدينة واحدة تاريخية ، مسورة بسور واحد هو الاسلام ، وسكان دورها هم سكانه ، فلا يمنع انحياز كل في داره ومحافظته على مميزات عائلية فيه سائر سكان المدينة من التعاون والتعاضد على جلب المصلحة لها ، ودرإ المضرة عنها ، فإن مصلحة المدينة هي مصلحة ديارها ، ومضرتها هي مضرتها ، اذا أقبل النهار فعلى الجميع ، واذا هجم الليل فعلى الجميع) (نقلا عن جريدة وادي ميزاب ، العدد الأول ، 1926/10/1)

هذه هي الصورة الواضحة المشرقة لبعض الأعلام الذين ينتسبون الى نظام العزابة والذين حملوا الإسلام فكرة وسلوكا

في ميزاب والجزائر والعالم الإسلامي ، فرصدوا أقلامهم خدمة لوحدة الأمة الإسلامية وكشف التيارات الانشطارية الدخيلة في الاسلام .

و ـ تقييم هذا النظام الاجتماعي :

قد يتساءل القارئ العزيز ، كيف ينفذ نظام العزابة أوامره وقراراته في المجتمع المسلم بميزاب .

إن نظام العزابة لايملك أية قوة ماديةكما هو الشأن في القوانين الوضعية ، إلا أنه يملك قوة معنوية رادعة وهي البراءة التي شرحناها سابقا في الأصول الإباضية والتي تعد عقابا نفسيا ذاتيا . فالمسلم العاصي في المجتمع الإسلامي يجد نفسه وحيدا منعزلا كل الانعزال عن مجتمعه المسلم ، ماديا ومعنويا وعائليا وأخويا حتى يتوب فتعاد إليه كل حقوقه .

يقول الإمام ابراهيم بيوض رحمه الله : (وفي الناس عصاة كثيرون نعاملهم معاملة دنيوية بالبيع والشراء والتجارة والأخذ والعطاء وكل شيء ولكن يتركون على حالهم ، والعقيدة في القلوب إننا نعلم أنهم عصاة وأنهم خارجون عن الدين ، ولكم لانجازيهم على أعمالهم وإنما نترك الجزاء لله . إنما اذا ارتكب المذنب هذا ، أما إذا جاهر بالمعصية بحيث أصبحت تحدث في المجتمع ضررا تضر بالناس رجالا ونساء وصبيانا يرون الفاحشة

ظاهرة فيها هتك الحرمات فهذا يجب إعلان البراءة منه في المساجد وهناك تدخل المسألة الإجتماعية للمحافظة على المجتمع)(51)

وعلى أية حال ، نتساءل هل هذا النظام حافظ على أصالته وشروطه أم عدل عنها . نقول :إن هذا النظام الاجتماعي ، قَدْ فَقَدَ بعض فعاليته في بعض مدن ميزاب ولاسيما دور البراءة وفعاليتها الإيجابية . وهذا يعود في نظرنا الخاص الى الأسباب التالية :

1 ـ إن الاستدمار الفرنسي قد عقم فعالية هذا النظام لأسباب سياسية خالصة ، بحيث لم يبق له المجال القضائي والسياسي والاقتصادي .

2 ـ إن الحضارة المعاصرة قد أثرت الى حد ما في المعايير الفكرية والمادية وبالتالي أمست تلك المفاهيم تتباين عند رجال هذا النظام ، وميزاب المسلم .

3 ـ بعض أولئك الذين تحملوا تلك المسؤولية الاجتماعية لم يلتزموا بروح رسالة العزابة التي ضبطها العلامة أبو عمار عبد الكافي لأن الرسالة تجعل النقد الموضوعي والأهلية العلمية والاجتماعية من سمات هذا النظام الإسلامي .

إن هذا النقد الموضوعي لاولن ينقص من نظام العزابة الذي لايزال يمثل دورا حيويا في حياة وادي ميزاب روحيا

---

51 ـ الأجوبة الشافية لفضيلة الشيخ بيوض ردا على أسئلة الأب كوبرلي ص : 10 .

واجتماعيا . ومهما كان الأمر فإن هذا النظام يعد انعكاسا طبيعيا وضروريا شرعا وعقلا للقاعدة الإسلامية المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يقول الله عز وجل : ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ (104 : آل عمران)

ويقول الرسول الكريم : «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**) رواه مسلم .

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبيء ﷺ قال : «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) رواه الترمذي .**

ز ـ وقفة مع الدكتور يحي هويدي في نظام العزابة :

هناك من ينظر الى نظام العزابة عند الإباضية نظرة سياسية ،بدعوى أنه يمثل نظاما سياسيا في حالة الكتمان الداعي الى إمامة الظهور .

نحن نقول إن هذا الشخص الذي ينظر الى هذه القضية من هذه الزاوية ، إما أن يكون جاهلا أو متجاهلا ، أو مهدما سلامة وحدة الأمة الجزائرية الإسلامية والاسلام .

إن هذا الحكم الذاتي والخاطئ مثله الأستاذ يحي هويدي إذ يقول : (وإباضية مأزب يعدون أنفسهم في دور الستر ، وهو الدور الذي بدأ بسقوط تاهرت عندما أعلن الإمام الإباضي يعقوب أنه لامجال لانتخاب إمام بعده وكان ذلك حوالي عام (909 هـ) والتنظيم الذي يخضع له أهل المأزب قائم على نفس هذا الأساس أي على أساس أنهم يمرون بدور الستر ، فهم يقسمون الشبكة الى مجموعة من الحلقات ، كل حلقة منها تتكون من اثني عشر عزابة (جمع عزب وهو المعتزل المتوحد غير المتزوج)(52)

إن د. يحي هويدي في نظري قد خفق كل الإخفاق في امتحان مادة التاريخ الإسلامي وعلم الاجتماع الديني لأن الإجابة كانت بعيدة كل البعد عن الحقيقة العلمية .

1 ـ لقد أورد عدة مرات كلمة مأزب على هذا الشكل خطأ عدة مرات اعتمادا على اللفظ الفرنسي M, ZAB ولكن الأصل أن تكتب عربيا ميزاب .

2 ـ إن الدولة الرستمية قد سقطت سنة 296 هـ ، وليست سنة 909 هـ ، كما يرى ذلك الأستاذ يحي هويدي وهذه الحقيقة موجودة في المصادر التاريخية الإباضية وغيرها .

3 ـ إن الإمام يعقوب بن أفلح قد اعتزل السلطة ولم يكن موجودا في تيهارت وطلب منه أن يكون إماما من قبل أنصاره

---

52 ـ يحي هويدي : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ص : 52 طبعة أولى 1966 .

في وارجلان إلا أنه رفض هذا الأمر ، فقال كلمته المشهورة التي أصبحت مثلا : لايستتر الجمل بالغنم. (53)

4 ـ إن صاحبنا الدكتور يريد أن يجعل نظام العزابة نظاما رهبانيا على حسب رجال الكنيسة بيد أن من الشروط الضرورية الأساسية في احتيار رجل العزابة أن يكون حسن السيرة ومتزوجا وجوبا وأب عائلة اختياريا ...

5 ـ أما قضية الستر أو الكتمان فلا وجود لها إطلاقا عند الإباضية وليطمئن هؤلاءكل الاطمئنان ، أن الإباضية لم تبايع أي إمام سرا بعد سقوط الدولة الرستمية وهل من المعقول أن يستمر الكتمان أكثر من إحدى عشر قرنا ؟

6 ـ إن نظام العزابة في واقع أمره ما هو إلا نظام تربوي إسلامي أصيل بالمفهوم المعاصر . إن هذه الأنظمة التربوية موجودة في الجزائر والعالم الإسلامي والعالم لخدمة الثقافة الحضارية وتطورها هنا وهناك تحت إشراف المنظمات الثقافية .

7 ـ إن الأستاذ يحي هويدي وأمثاله قد وقعوا تحت تأثير الفكر الاستشراقي وأمسوا عبيدا له دون نقده . والشيء العجيب أن الأستاذ الفيلسوف يحي هويدي يدرك كل الإدراك أن الفلسفة لاتقبل أي معرفة إلا بعد نقدها نقدا موضوعيا والابتعاد

---

53 ـ الدرجيني : طبقات المشائخ ج 1 . ص : 105 .

عن الأحكام الذاتية . ليكون ذلك الحكم موضوعيا مقبولا عند الغير ، هذه هي وظيفة الفلسفة ومنهجها .

ولا بأس أن أورد ما قاله الأستاذ الكريم الشيخ علي يحي معمر رحمه الله : (إن نظام العزابة نظام تربوي عملي لاسر فيه ولا أستار ، ولا يجبي الأموال ، ولا يغفر الذنوب ولايعتزل الناس ، ولا يشترط العزوبية ، وليست له فترة محدودة ولا هو مسلك من مسالك الدين .

وبنو ميزاب الآن وهم في حالة ظهور - والحمد لله - بعد استقلال الجزائر لايزالون يحتفظون بنظام العزابة)[54]

إذن فهذه هي الصورة العامة لنظام العزابة ، والذي لاخلاف ولاجدال فيه أن هذا النظام قائم على القاعدة الشرعية التي تجعل الناس كلهم مسؤولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إن هذه القاعدة ضرورية وواجبة شرعا وعقلا لإصلاح مجتمعاتنا الإسلامية مغربا ومشرقا بسلوك التربية القرآنية ، وهكذا يتبين لنا بكل جلاء أن نظام العزابة ، هو نظام تربوي إسلامي ، واذا اندثر هذا النظام فإن المجتمع المسلم في وادي ميزاب ، ستَتَسَرَّب فيه آفات اجتماعية خطيرة في سلوكاته الاجتماعية العامة وبالتالي يفقد إحدى دعائمه الاسلامية الثابتة في القرآن الكريم . وفي هذا المنظور الاجتماعي يقول الأستاذ علي يحي معمر رحمه الله :

54 - علي يحي معمر الإباضية في الجزائر ص : 490 .

(وقد ارتفع حكم العزابة من مواطن الإباضية في ليبيا وتونس في القرن الأخير ومنذ ارتفع نظام العزابة في هذه المواطن تسرب الفساد الى المجتمع ، ولن يستطيع الإباضية أن يعودوا الى ما كانوا عليه من دين وخلق واستقامة ما لم يعودوا الى الاستمساك بدين الله ، وأنّ المسلمين جميعا ما أصيبوا بما أصيبوا به إلا لانحرافهم عن دين الله وخروجهم عن منهاجه) ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)[55]

55 ـ الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الأولى ص : 110 .

الخاتمة

إن الخلاصة التي يمكن تسجيلها وضبطها من خلال هذه الدراسة العامة ، أن هذا الكتاب الموجز ، قد بين لنا بصورة جلية أن هناك حضارة إسلامية أصيلة ، تضرب جذورها في وادي ميزاب .

وهذا المجتمع المسلم ، استطاع تاريخيا أن يصمد كل الصمود إزاء الظواهر الطبيعية القاسية والمحن الشديدة التي مر بها وهذا بفضل التربية القرآنية . وعلى كل حال ، فإن هذا البحث المقتضب قد تمكن من تسليط الأضواء الكاشفة على طبيعة مكونات المجتمع المسلم في ميزاب . ورفع اللبس الذي قد يقع فيه القارئ أو السامع أو المشاهد وفوق هذا فقد صحح بعض المفاهيم الخاطئة التي أخذت من مصادر غير إباضية .

وكان لزاما علينا أن نقول : إن الحضارة الإسلامية لايمكن إفراغ مضمونها الأخلاقي والديني والتاريخي .

فالإسلام له رؤيته الواضحة في شرح وتعليل أي حضارة إنسانية بمنظاره الخاص وبدون هذا ، فإننا نصدر أحكاما خاطئة بعيدة كل البعد عن الواقعة الإنسانية .

وفي هذا المسار يقول أنور الجندي (لقد قامت الحضارة الإسلامية على نحو معجز عجيب في خلال أقل من مائة عام من حدود فرنسا الى حدود الصين ،فشكلت منهجا جديدا مغايرا بل معارضا في كل مضامينه لمفاهيم الفكر البشري الذي قامت عليه

حضارة اليونان والرومان والفرس والحضارة الغربية الحديثة من بعد)(56)

فالحضارة الإسلامية هي حضارة قائمة على وحدانية القيم الأخلاقية الإنسانية المطلقة في جوهرها ـ لأن هذه القيم قد حررت الإنسانية من مظاهر العبودية مهما كانت طبيعتها ،فردية أو اجتماعية ،سياسية أو اقتصادية وبهذا يشعر الفرد بإنسانيته وكرامته وحريته الحقيقية .

هذه الأخلاق لاتميز ولاتفضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح المستمر .

ومن هنا حرمت على أي مسلم أن يتعدى على أخيه المسلم لأنه عمل غير صالح سواء في عرضه أو نفسه أو ماله .

يقول الرسول الكريم : «**المسلم أخو المسلم لايخونه ولايكذبه ولايخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وبعد هذا فإنه يجدر بنا أن نشير الى أن الاختلافات الاجتهادية الحاصلة في الفكر الحضاري الاسلامي ، تعكس بالضرورة طبيعة الإنسان لأن التجارب الإنسانية قديما وحديثا بينت بالدليل القاطع أن الاختلافات واردة حتى في المدرسة الواحدة ذاتها ، فضلا عن تباين البشر في ألسنتهم وذكائهم

56 ـ أنور الجندي شبهات التغريب ص : 367 .

واجتهاداتهم . يقول الله عز وجل : ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ هود : 118 ـ 119)

﴿**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ (الروم : 22)

إن الاختلاف الذي حصل اليوم في المذاهب الإسلامية يعد من الظواهر الإنسانية الطبيعية وهو ينم عن الاجتهاد الفكري . ولكن بشرط أن نلتزم بالقيم الأخلاقية القرآنية كالإنصاف والإعتراف بما جاء عند غيرنا ما دام هذا الاجتهاد لم يخرج عن الثوابت الاسلامية .

يقول الأستاذ طاهر جابر فياض العلواني في كتابه القيم : أدب الاختلاف في الاسلام ، صفحة 26 : (إن الاختلاف الذي وقع في سلف هذه الأمة ـ ولا يزال واقعا ـ جزء من هذه الظاهرة الطبيعية ، فإن لم يتجاوز الاختلاف حدوده بل التزمت آدابه كان ظاهرة إيجابية كثيرة الفوائد) وعلى أية حال فإن المذاهب الإسلامية كلها ، تمثل الجانب العقلي والروحي لحضارتها الإسلامية الهادفة الى خدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة من خلال الأبحاث العلمية والفقهية الجادة التي تجيب عن القضايا المطروحة في ساحة الفكر المعاصر ، وخير دليل على ذلك قاموس الشريعة الذي ألفه العلامة جميل بن خميس

السعدي وهو من أبرز أعلام المدرسة الإباضية وهذه الموسوعة الفقهية تحتوي على 92 مجلدا فكل مجلد يشتمل على 500 صفحة . وحري بنا أيها المثقفون المسلمون أن نكون أداة للبناء وحماة للعمل الصالح ودعاة للوحدة الإسلامية عملا وليكن شعارنا القرآن الكريم دستورنا والرسول العظيم (محمد) إمامنا ، وأئمة المذاهب كلهم أعلامنا وشيوخنا رحمهم الله . فليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه ، دون أن نهمل أو ننقص رأي غيرنا في دراساتنا الدينية والفقهية والفلسفية بهذه الأخلاق الإسلامية العالية ، نطهر أنفسنا من رواسب الأخلاق السيئة والغزو الفكري مشرقه ومغربه وبالتالي نحطمه بوحدتنا .

وانطلاقا من هذا نرى من الضروري أن نجسم هذه المبادئ في سلوكاتنا العامة في البيت والشارع والمدرسة والمسجد والمصنع ، لتأصيل حضارة أمة القرآن ، وجدير بالمسلمين أجمعين أن يترجما عمليا ما جاء في ملتقى الفكر الاسلامي الثاني والعشرين المنعقد بالجزائر .

لقد جاء في إعلان الجزائر (المسلمون في أرجاء العالم أمة واحدة ، تؤمن بالله تباركت أسماؤه وبالنبيء الخاتم محمد صلوات الله عليه وسلامه ، وهم في عقائدهم وشرائعهم يعتمدون على القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ومهما اختلفت مذاهبهم الفكرية أو آراؤهم في المعتقدات الاجتماعية ، فهم إخوة يتواصلون بالحق

والصبر ، ويتعاونون على البر والتقوى ويرفضون رفضا تاما أن يكون الخلاف الفقهي مثار نزاع أوّ فرقة أو تكفير)[57]

ومن استقراء تاريخ وادي ميزاب ، يتبين لنا أنه لم ولن ينفصل عن الدين الإسلامي وهو يرى أن عزة الدولة الإسلامية ماضيا وحاضرا ، يجب أن تكون قائمة عمليا على القرآن الكريم والسنة الشريفة ، إن هذه الفكرة الجوهرية قد استمسك بها الإباضية في جهادهم الطويل .

وكل من يدعو الى فصل الدين عن الدولة يعد علمانيا ، لائكيا ، خارجا عن الحق لأن الإسلام يوحد ولم يفصل بين الدين والسياسية هذه النظرة تعد انعكاسا للفكر المسيحي .

ثم إن الإسلام الأصيل لايمكن فهمه إلا باللغة العربية الفصحى ، وهكذا نجد ميزاب يعتز كل الاعتزاز بتلك اللغة قديما وحاضرا .

ولا أدل على ذلك من الكفاح المستميت على الاستعمار الذي أراد تهميش ومحاربة المساجد في ميزاب ومدارسه العربية ، إن الأجداد والآباء والأمهات رحمهم الله أجمعين ضحوا بالنفس والنفيس حفاظا على الإسلام واللغة العربية الفصحى ، بالرغم أن البيئة لم تكن عربية اللسان ، لأن هؤلاء فهموا بحسهم الفطري وشعورهم الديني القوي ، أن الإسلام قد بني على القرآن

57 ـ الشعب ، العدد 7734 الثلاثاء 25 محرم 1409 هـ .

الكريم الذي أنزل عربيا على محمد ﷺ **﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾** (يوسف : 2)

وقد يسأل القارئ الكريم هنا ، ما هو موقف وادي ميزاب إزاء لغته الميزابية الأمازيغية ، نحن نقول صراحة نعتز بهذه اللغة ضمن الثقافة المحلية المعبرة عن شخصيتنا الجزائرية ، ولكن لن تكون أبدا على حساب لغة القرآن الكريم الذي يجب أن ندرس كل علومه باللغة العربية ، وبعبارة منطقية دقيقة ، لا إسلام بدون قرآن ولاقرآن يدرك ويفهم جوهره بدون لغة عربية فصيحة نظيفة .

والى هنا نقول : إن ميزاب قد جسم هذا الميزان في حضارته الإسلامية التي تمثل الحضارة الإنسانية ولابد من الاستعصام بها لتحقيق السعادة التي ينشدها كل إنسان .

وختاما أرجو أن يكون القارئ الكريم قد استفاد من هذا البحث وعمق وعيه الإسلامي .

ليكن هدفنا الأول هو خدمة الأمة الإسلامية وحضارتها ، قبل أي اعتبار .

ولا أنسى أن أقدم كل تقديري وثنائي الى الذين أمدوني يد المساعدة وشجعوا هذا البحث من بعيد أو من قريب **﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾**

﴿ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾

(286 : البقرة)

المراجع

1 ـ القرآن الكريم .

2 ـ الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الأولى : الإباضية في الجزائر الأستاذ علي يحي معمر ، مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الأولى .

3 ـ أخبار الأئمة الرستميين ، ابن الصغير ، تحقيق الدكتور محمد ناصر والأستاذ ابراهيم بحاز ، المطبوعات الجميلة . الجزائر 1986 .

4 ـ الأصول التاريخية للفرقة الإباضية . د. عوض محمد خليفات ، ط 2 ، مسقط .

5 ـ أضواء ميزاب : كلود بافار ، الناشر ديلتروار بولون فرنسا .

6 ـ الإسلام ومستقبل الحضارة د.صبحي الصالح دار الشورى 1982 بيروت .

7 ـ تاريخ الجزائر الأستاذ أحمد توفيق المدني المطبعة العربية الجزائر 1940 .

8 ـ تاريخ الجزائر العام الجيلالي عبد الرحمن بن محمد ط 2 ، مكتبة الحياة ، بيروت .

9 ـ تاريخ العلامة ابن خلدون المجلد السابع القسم الرابع دار الكتاب اللبناني .

10 ـ تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية د. يحي هويدي مكتبة النهضة المصرية القاهرة : 1966 .

11 ـ الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب التحقيق للامام عبد الله بن حمد السالمي المطبعة السلفية سنة 1349 هـ .

12 ـ الدليل والبرهان لأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني طـ : 2 مسقط ، عمان .

13 ـ دراسة في الفكر الإباضي عمر بن الحاج محمد صالح با ، الطبعة الثانية مسقط .

14 ـ دراسات إسلامية في الأصول الإباضية بكير بن سعيد عوشت دار البعث 1982 .

15 ـ الذهب الخالص العلامة محمد بن يوسف أطفيش ، تحقيق أبو إسحاق ابراهيم أطفيش المطبعة السلفية مصر . 1343 هـ .

16 ـ شرح كتاب النيل وشفاء العليل ج 7 . للعلامة محمد ابن يوسف اطفيش دار الفتح بيروت 1972 .

17 ـ طبقات المشائخ بالمغرب للشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ج 1 ، و 2 ، تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة الجزائر 1974 .

18 ـ العقود الفضية في أصول الإباضية لعبد الله الفقير سالم ابن أحمد بن سليمان بن حميد الحارثي العماني دار اليقظة العربية دمشق 1974 .

19 ـ فقه الإمام جابر بن زيد ج 1 ،تحقيق يحي محمد بكوش طـ 2 ، المطبعة العربية ، غرداية 1988 .

20 ـ الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، أنور الجندي الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1965 م .

21 ـ في معركة الحضارة قسطنطين زريق ، دار العلم للملايين بيروت ، ط 3 ، 1977 .

22 ـ قواعد الإسلام للإمام أبي طاهر اسماعيل الجيطالي تحقيق الأستاذ بكلي عبد الرحمن بن عمر المطبعة العربية غرداية 1976 .

23 ـ كتاب الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء يحي بن أبي بكر تحقيق د. اسماعيل العربي المكتبة الوطنية الجزائر 1979 .

24 ـ مشارق أنوار العقول للإمام نور الدين أبي محمد عبد الله بن حميد السالمي تحقيق الإمام أحمد بن حمد الخليلي ، طـ : 2 ، مسقط عمان .

25 ـ الموجز لأبي عمار عبد الكافي الإباضي تحقيق د. عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1978 .

26 ـ النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا : د. عوض خليفات . شركة المطابع النموذجية عَمان 1982 م.

27 ـ نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة . د. فرحات الجعبيري المطبعة العصرية . تونس : 1975 .

28 ـ نهضة الجزائر الحديثة محمد علي دبوز ط ـ 1 ،. المطبعة التعاونية دمشق 1965 .

نبذة من حياة الميزابيين . ج 1 ، حمو محمد عيسى النوري ، دار الكيروان . باريس 1984 .

الدوريات

العربي العدد 286 ، سبتمبر 1982 .

وادي ميزاب العدد الأول 1926/10/1م .

الشعب العدد 7734 ، 25 محرم 1409 هـ .

المخطوطات والوثائق الهامة

أ ـ رسالة في سيرة العزابة وادي ميزاب .

ب ـ المجالس الدينية بوادي ميزاب للاستاذ الفاضل الحاج محمد مطهري .

ج ـ الأجوبة الشافية لفضيلة الأستاذ الشيخ بيوض للرد على أسئلة الأب كوبرلي .

د ـ شهادة ابن خدة بن يوسف الرئيس السابق للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في حق الإمام ابراهيم بيوض .

هـ ـ محاضرة أعوشت بكير بن سعيد (أبو عبد الله محمد ابن بكر الفرسطائي ودوره في تأسيس نظام العزابة)

ألقيت في نادي الإصلاح 25 / 1988/07 . بغرداية بمناسبة الذكرى الألف لتأسيس حلقة العزابة .

الفهـرس

قيل عن ميزاب 6
المقدمة 8
الفصل الأول 15
الملامح العامة عن وادي ميزاب : جغرافيا وتاريخيا وعقائديا
. . . . 15
الحضارة ودلالتها 15
أ ـ وادي ميزاب جغرافيا 19
ب ـ وادي ميزاب تاريخيا 30
1 ـ الإباضية عقيدة وليست عرقا 30
2 ـ وقفة مع الدكتور وهبة الزحيلي 33
3 ـ هل الإباضية خوارج ؟ 46
4 ـ لمحات عن تاريخ المدرسة الإباضية وتاريخ
ميزاب 51
د ـ الدولة الرستمية 54
هـ ـ الإباضية وإنشاؤهم لمدينة سدراتة 57
و ـ الإباضية واستقرارهم بوادي ميزاب 60
1 ـ أصل الميزابيين 60
2 ـ تاريخ إنشاء مدن وادي ميزاب 62
ز ـ أصول العقائد الإباضية 74

الفصل الثاني

نظام العزابة وأثره الإجتماعي في وادي ميزاب 88
1 ـ لماذا لجأ الإباضية الى نظام العزابة 90
2 ـ العلامة أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي ودوره في تأسيس نظام العزابة 92
3 ـ نظام العزابة 102
أ ـ العزابة لغة واصطلاحا 102
ب ـ ما هي شروط عضوية العزابة 103
ج ـ أعضاء هيئة العزابة ووظائفهم 105
د ـ الهيئات الاجتماعية المساعدة لنظام العزابة : 1 ـ الأسرة ، 2 ـ العشيرة ، 3 ـ جمعية الشباب (إمصوردان) ، 4 ـ المجلس الديني للنساء 5 ـ مجلس عمي سعيد . 106
ه ـ الآثار العامة لنظام العزابة في وادي ميزاب تاريخيا وحاضرا : 1 ـ في الميدان الديني والاجتماعي ، 2 ـ في الميدان الثقافي والعلمي ، 3 ـ في الميدان النضالي والسياسي .
و ـ تقييم هذا النظام الاجتماعي 124
ز ـ وقفة مع الدكتور يحي هويدي 126
الخاتمة 131
المصادر 137
الفهرس 141

المطبعة العربية
نهج طالبي أحمد غرداية

الايداع القانوني رقم 62 xxxx 3 xxxx 1991